الدعوة إلى الله تعالى
على ضوء الكتاب والسنة

الدعوة إلى الله تعالى
على ضوء الكتاب والسنة

رسالة
لنيل درجة الماجستير

حسن مسعود الطوير

دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ص.ب: ١٣٤١٤

إلى الـداعي الملقب بـالأمـين وهادي الخير ذي النـور المبين
ومن بـالفضل تـذكره الـبرايـا إلى طـه المـؤيـد بـاليـقـين
أقـدم ما بـه أرجـو خـلاصي إذا انكشف الغطاء عن العيون

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين من بعثه الله بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وبعد

لقد كان العالم في حاجة ملحّة لدين جديد بعد أن خفت صوت الرسل السابقين وضاعت معالم الرسالات الإلهية التي أرسلها الله لعباده، وبعد أن كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة، كان من رحمة الله بالناس بعد أن ضلوا في العقيدة والدين وبلغ الظلم الاجتماعي بينهم حداً لا يطاق بأن تتصل السماء بالأرض برسالة جديدة تنقذ الناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل، فكان هذا المنقذ هو الدين الإسلامي آخر الأديان السماوية بشّر به رسول كريم هو محمد بن عبد الله ﷺ خاتم الرسل المصطفين الأخيار.

ولما كان الإسلام ديناً عالمياً للناس كافة اقتضى ذلك أن تستمر الدعوة إليه منذ البعثة وإلى أن تقوم الساعة مصداقاً لقوله تعالى على لسان نبيه ﷺ ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[1].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

وأن يكلف المسلمون أنفسهم مسؤولية الدعوة إلى الله فهي دعوة تسع الناس كافة على تعدد ألوانهم واختلاف ألسنتهم وتباين أوطانهم وامتداد أزمانهم.

ولأن مسؤولية الدعوة لم تعد مرعية حق رعايتها من المسلمين، ولئن قام بحملها بعضهم بمجهود شخصي فاتر واجتهاد قاصر فشعوري بأن حملة الدعوة الإسلامية يحتاجون إلى منهج موحد واضح المعالم دفعني إلى كتابة هذا البحث الذي أرجو أن يضم إلى بقية البحوث الموفقة التي كتبت في هذا السبيل ليسترشد بها كل داع إلى هداية الإسلام ويستضيء بها كل مرشد إلى مقاصد هذه الشريعة الغراء، وتوخيت في هذه الدراسة إقرار حقائق تتعلق بطبيعة الدعوة الإسلامية وخصائصها ومقاصدها مستوحاة من الآيات القرآنية والسنة النبوية ومسالك الصحابة رضوان الله عليهم. ثم أوضحت حقيقة الداعية متمثلاً في القدوة الحسنة صاحب الرسالة محمد ﷺ لكي تتوثق الصلة بين الداعية وما يدعو إليه ويكون على بصيرة من منحى دعوته التي أمر بتبليغها إلى المدعوين المخاطبين بها الذين لم أغفل الحديث عن الأسلوب الأمثل في مخاطبتهم بتلك الدعوة بما يناسب مشاعرهم وطبائعهم وبيئاتهم.

وبعد مقدمتي هذه والتمهيد الذي وطأت به للباب الأول قسمت هذا البحث إلى أربعة أبواب:

الباب **الأول**: **وتناولت فيه عموم رسالة الإسلام وإثبات كونها عالمية المكان والزمان وقسمت هذا الباب إلى فصول:**

الفصل الأول: عرضت شبهات المستشرقين في خصوصية الإسلام بالعرب والرد عليها.

الفصل الثاني: عالمية الإسلام في القرآن.

الفصل الثالث: مناقشة الآيات الموهمة لخصوصية الإسلام.

الفصل الرابع: عالمية الإسلام في السنّة.

الفصل الخامس: خصوصية الديانتين اليهودية والمسيحية.

الفصل السادس: الخصائص الإنسانية للدعوة الإسلامية.

الباب الثاني: وتعرضت فيه لبيان الدعوة والداعية:

الفصل الأول: ويتضمن تعريف الدعوة.
الفصل الثاني: تعريف الداعية.
الفصل الثالث: الداعية الأول محمد ﷺ.
الفصل الرابع: إعداده ﷺ للدعاة.
الفصل الخامس: شروط الداعية كما يصورها الكتاب والسنّة.
الفصل السادس: مقاصد الدعوة إلى الله تعالى.
الفصل السابع: واجب إبلاغ الدعوة.

الباب الثالث: وخصصته للحديث عن المخاطبين بالدعوة فجاء:

الفصل الأول: لبيان دراسة الحالة النفسية للمخاطبين بالدعوة.
الفصل الثاني: دراسة الحالة العقلية للمدعوين.
الفصل الثالث: دراسة الحالة الاجتماعية.
الفصل الرابع: التدرج مع المخاطبين بالدعوة.

الباب الرابع: ويدور حول وسائل انتشار الدعوة قديماً وحديثاً ويتضمن:

الفصل الأول: المكاتبات.
الفصل الثاني: الفتوحات ودفع شبهة انتشار الإسلام بالسيف.
الفصل الثالث: التجارة ودورها في نشر الإسلام.
الفصل الرابع: الحديث عن الطرق الصوفية كوسيلة من وسائل انتشار الإسلام.
الفصل الخامس: وسائل الإعلام الإسلامي المختلفة.

وأبرزت في الخاتمة نتائج البحث التي توصلت إليها.

هذا وإني لم آل جهداً في تحري الصدق والموضوعية قدر الإمكان والتنزه عن الاستئناس بالمرويات الضعيفة، كما أنني لم أجنح لهاجس هوى وإنما دعمت كل رأي عرضته واجتهدت في استنباطه بدليل نقلي أو عقلي مسترشداً بالقرآن والسنة وآراء العلماء المحققين قدماء ومحدثين.

وكان من أهم المصادر التي اعتمدت عليها من كتب التفسير: كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وتفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور. ومن كتب الحديث: صحيح البخاري وصحيح مسلم، وسنن الترمذي وابن ماجه، والكثير من المراجع والمصادر.

وأتقدم بالشكر الجزيل للدكتور عبد الجواد خلف رئيس ومؤسس جامعة الدراسات الإسلامية بكراتشي بالباكستان الذي مد لي يد العون فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء كما أتقدم بالشكر للأستاذ: سعيد سالم فاندي الذي قام بمراجعة البحث وأسدى إليّ نصائحه وملاحظاته فجزاه الله عن ذلك خيراً.

هذا جهدي المتواضع أقدمه لبنة من بناء صرح الدعوة السامق قاصداً به وجه الله، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

الأصابعـــة
١٣ شوال ١٤١١ هـ
الموافق ٢٧ أبريل ١٩٩١ م
والله الموفق

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

تمهيد

لا شك أن الإنسان المعاصر يعيش في حيرة نسجتها خيوط ماديته، فمنذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى الثلث الأول من القرن العشرين صار الغرب ومن والاه من متعلمي الشرق لا يطمئن إلّا إلى المدركات الحسية ويلفظ ما عداها وإن اعتدل في حكمه فإنه يخرجها من دائرة بحثه.

فقد كان الاعتقاد السائد أن الحقائق إنسانية كانت أم طبيعية حكر على ما يعاين بالحس، ولكن تزايد القلق والاضطراب في نفس هذا الإنسان أشعره في الثلث الأخير من هذا القرن بأنه حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء، وأن عالم ما وراء الطبيعة أرحب وأعمق من عالم المادة وأعظم من أن تحده حواس الإنسان القاصرة أو يحصره عقله المحدود.

فتلك النظريات التي فسرت الكون بقوانين وضعية انهارت أمام تجارب الحياة الإنسانية، تلك المذاهب الطبيعية التي فسرت بعض الظواهر الإنسانية بالتخمين ثبت زيفها وسقطت من ميزان العلم كنظرية النشوء والارتقاء التي عوّل عليها الماديون كثيراً في مطلع هذا القرن، ولم يعد فرويد صاحب منهج التحليل النفسي محط أنظار الباحثين في سلوك الإنسان وشعوره كما أنه لم يعد للشيوعية مكان في العالم فصرع الإلحاد في أعتى حصونه كما أن الوجودية بعد موت سارتر أخذت تغرب عن الوجود، وبذلك صار الإنسان المعاصر متعطشاً إلى الروحانيات التي

تنكّر لها فيما مضى ويتوق إلى الخلاص بالإيمان بالله فنشطت الحركات الدينية وأخذت تشغل هذا الفراغ الروحي الذي يعاني منه إنسان اليوم، فهل بذل المسلمون جهوداً ذات أثر في سبيل الدعوة إلى دينهم الحنيف الذي ينظم الحياة الروحية والمادية للإنسان؟

إن المتتبع للدعوات الإسلامية، فردية وجماعية، رسمية وعفوية، يسوءه قلة الداعين وضعف وسائل الدعوة وكثرة العقبات التي تحول دون بلوغ الدعوة الإسلامية إلى الناس على اختلاف بيئاتهم ومستوياتهم الحضارية كما أن الاستعداد العلمي غير متكامل عند الدعاة فهم فريقان، فمن حامل لعلوم دينية خالصة مع تجرد من الإلمام بالعلوم العصرية واللغات الحية، ومن ملم بنصيب من العلوم الحديثة مع ضعف تحصيل في العلوم الدينية مما يجعل الدعوة لا تبلغ إلا بجلاء وصفاء وتبقى القلوب بمنأى عنها.

فنحن في حاجة إلى دعاة يجمعون بين حرارة الإيمان وفقه أسس العقيدة وأحكام الدين، وبين تفتح العقل على الثقافات المعاصرة فيبلّغون الدعوة بأسلوب يلامس قلوب المدعوين مستفيدين من حركة الفكر محتفظين بكل خصائصه وحقائقه مقتحمين الأجواء التي خلقتها المذاهب الغربية بصراعاتها التي انعكست سلباً على حياة البشرية، وسيجدون في تعاليم دعوتهم الإسلامية ما يدفعهم إلى الأمام ويضاعف من إرادتهم فهي دعوة تحوي جوانب الخير للإنسان وتجمع فضائل الحياة السعيدة التي لا تحد بنوع متطرف من تلك الحياة، فهي ليست دعوة روحانية خالصة تتنكر لمتطلبات الجسد وهي لا تحارب نبوغ الفكر بل تنظم كل ذلك وتوجهه إلى خير الفرد والجماعة والناس جميعاً، فهي دعوة ترتبط بالإنسان أينما كان تصلح للعربي والهندي والفارسي والجرماني وتفيد أصحاب الحضارات الصناعية كما تفيد أهل الحضارات الزراعية، تتجاوب مع سكان الشرق كما تتوافق مع حاجات سكان الغرب.

الباب الأول

عَالَمِيَّةُ دَعْوَةِ الْأِسْلَام

الفصـــل الأول

عرض شبهات المستشرقين في خصوصية الإسلام بالعرب

تعريـف الإســلام:

الإسلام بالمعنى العام في دعوات الأنبياء جميعاً له معنى مشترك عند كل نبي وهو «الإيمان بالله وكمال صفاته والتصديق بوحيه المنزل على أنبيائه والخضوع لأحكامه»[1].

والإسلام قديم دعا له جميع الأنبياء والمرسلين.

قال نوح عليه السلام لقومه ﴿إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾[2].

وقال إبراهيم عليه السلام ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[3].

ووصى يعقوب بنيه بقوله ﴿فلا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون﴾[4].

فأجابه أبناؤه ﴿نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾[5].

---

(١) كتاب الدين، محمد عبد الله دراز ص: ١٧٥، ط ٢، دار القلم الكويت، ١٩٧٠ م.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

ودعا يوسف عليه السلام ربّه: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[1].

ودعا موسى عليه السلام قومه إلى الإسلام فقال ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾[2].

وأجاب الحواريون عيسى عليه السلام ﴿نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون﴾[3].

والإسلام في الدعوة المحمدية له معنى أخص من المعنى السابق، فهو علم على الدين الخاتم الذي ختمت به رسالات السماء والموجه للناس قاطبة قال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[4].

والعلاقة واضحة بين المعنيين، فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ عقيدة وشريعة محتو على أصول العقيدة التي دعا إليها الأنبياء السابقون من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والمغيبات التي أنبأ عنها، كما أنه يحافظ على الأخلاق التي تمسك بها أولئك الأنبياء مع نسخه لبعض الأحكام الشرعية وهذا ما يخصصه عن ذلك المعنى العام.

تصدي اليهود والنصارى لدعوة الإسلام:

لاقى الإسلام منذ ظهوره مقاومة عنيفة من أهل الأديان التي سبقته لكونه آخر الأديان السماوية ولأن محمداً هو خاتم الأنبياء وقد تمثلت هذه المقاومة في الكيد لأتباعه مرة وبالمؤامرات والحروب المسلحة تارة أخرى، ولكن على الرغم من ذلك خرج الإسلام من كل هذه الامتحانات مؤيداً منتصراً وانتشر انتشاراً لا نظير له في الأديان السماوية السابقة حيث لم يمض عليه قرن من الزمان حتى بلغ نهر

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٢) سورة يونس، الآية: ٨٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

سيحون[1] شرقاً ونهر اللوار[2] غرباً.

وقد توهم أهل الديانتين ـ النصرانية واليهودية ـ أن الدين الإسلامي يختلف عن أديانهم وأنه جاء ليقضي عليها ورأوا أنهم أمام دين قوي بتعاليمه وإعجازه وإيمان أهله، من أجل ذلك تصدى اليهود للإسلام كما تصدت له النصارى، وإن كان كل فريق في ميدانه لأن العداوة بينهما لم تجمع أهل الديانتين في ساحة واحدة ضد الإسلام[3].

وحيث إن الدين الإسلامي قد ظهر وانتشر في بلاد يدين أهلها بإحدى الديانتين اليهودية والنصرانية وبعد أن قضى الإسلام على الوثنية في داخل الجزيرة العربية وأطرافها أصبح في مواجهة أتباع تلكما الديانتين الذين حاولوا الكيد للإسلام وذلك بغية القضاء على الوحدة الدينية وإضعاف المسلمين وتفريقهم، وتحقيقاً لأغراضهم ساروا في اتجاهات متعددة أبرزها:

محاربة اليهود للدعوة:

كان من المتوقع أن يجد النبي ﷺ في اليهود سنداً لدعوته وأن يكونوا أول من يؤمن به لما كان بين دعوته وأسس دينهم من تقارب ولما احتواه القرآن الكريم من تقريرات متنوعة بأنه مصدق لما بين يديه من الكتب المساوية، لكن اليهود حاربوا الدعوة الإسلامية لأنّه عزّ عليهم أن يروا أرستقراطيتهم مهددة باستقرار أمر العرب والتفافهم حول رسول الله ﷺ فلا ضمان لمركزهم هذا إلّا بالقضاء على محمد ودعوته، ولذلك دبروا المكائد ضد النبي ﷺ للتخلص منه أو لوقف تيار الإسلام فكانوا ينقضون العهد في أحرج اللحظات ويمالئون أعداء المسلمين عليهم ليستأصلوا شأفتهم. ومن مكائدهم محاولة قتل النبي ﷺ حين قدّموا له ولبعض

---

(١) نهر سيحون: هو أحد أنهار القارة الآسيوية الذي يقع في شمال شبه القارة الهندية ويصب في بحر آرال وهو في المنطقة التي تسمى ببلاد ما وراء النهر.

(٢) نهر اللوار: أحد أنهار القارة الأوروبية يقع في فرنسا جنوب نهر السين ويصب في المحيط الأطلسي وقد وصلت إليه قوات الزحف الإسلامي عندما اخترقت جبال البرانس.

(٣) انظر نظام الإسلام للدكتور وهبه الزحيلي، ص ٥٠، ط ٢، جامعة قاريونس بنغازي ١٩٧٨ م.

أصحابه شاة مسمومة[1] ومرة بإلقاء حجر عليه من سطح دار كان جالساً في صحنها. وظهرت عداوة اليهود سافرة في وجه الدعوة حينما قالوا: (يا محمد لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة)، ثم ظهر عداؤهم أكثر حين تحالفوا بعد غزوة أحد مع قريش فكان لا بد للمسلمين من عمل مضاد لصد خطر اليهود ثم عادوا وغدروا بالمسلمين في غزوة الخندق والمسلمون في أشد ساعات الحرج، ولما شعر اليهود أن العرب أخفقوا في القضاء على الدعوة الإسلامية جمعوا شملهم واستعدوا للإغارة على المدينة فكان رد الرسول الكريم ﷺ عليهم أن باغتهم بالسير إليهم فكانت وقعة «خيبر» التي نصر الله فيها المسلمين وتم إجلاء اليهود من المدينة المنورة.

قال مالك في الموطأ: وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نجران وفدك وأما يهود خيبر فخرجوا منها ليس لهم من الثمر ولا من الأرض شيء وأما يهود فدك فكان لهم نصف الثمر ونصف الأرض فأقام لهم عمر نصف الثمر ونصف الأرض قيمة من ذهب وورق وإبل وحبال وأقتاب ثم أعطاهم القيمة وأجلاهم منها[2].

وسنرى عند الحديث عن الاستشراق كيف أن اليهود المنتشرين في أوروبا استشرقوا بغية قذف الإسلام بشبهات يلفقونها بعد دراستهم اللغة العربية والدين الإسلامي في الجامعات الأوروبية وفي رحلاتهم العلمية إلى الشرق الإسلامي.

محاربة النصارى للدعوة الإسلامية:

١ ـ التبشير في العالم بالمسيحية:

وكان القصد منه استمالة الوثنيين إلى المسيحية قبل أن يصلهم الدعاة المسلمون ولم يكن يدور بخلد المسيحيين إقناع المسلمين بترك دينهم والدخول في المسيحية ولكنهم نجحوا في حملاتهم التبشيرية بتنصير الوثنيين يقول أحد أقطاب

---

(١) خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر، الشيخ أحمد محمد عساف ص ٢٦٤، ط ٣، دار إحياء العلوم بيروت ١٩٨٣ م.

(٢) موطأ مالك ص ٤٩٩، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٤ م.

التبشير المسيحي في العالم وهو «صموئيل زويمر»: ليس غرض التبشير المسيحي إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين، كما أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه، وعندها لا يكون مسلماً ولا تكون له عقيدة يدين بها[1].

٢ ـ الاستشراق:

إن الدارس لتاريخ الاستشراق يلاحظ أنه بدأ أولى خطواته في أحضان الكنيسة وأن الجيل الأول من المستشرقين كان من الرهبان والقساوسة وما زال بعضهم حتى الآن من رجال اللاهوت، وأن روح التعصب والأفكار الكنسية والنظرة إلى الإسلام نظرة غير موضوعية قادت الفكر الاستشراقي في خلال تاريخه وحتى الوقت الحاضر.

لقد كان النصر العسكري الذي أحرزه المسلمون في موقعة اليرموك[2] وما واكبها من معارك إلى وقعة حطين[3] تتراءى صورته في مخيلة الإفرنج فتبعث في نفوسهم روح التوجس من أن تفاجئهم الجيوش الإسلامية وتغزوهم في عقر دارهم، وأذكى هذا الشعور بالمعاداة والقلق موقف الكنيسة من تأثير الفكر الإسلامي على أهل أوروبا فقد كانت الكنيسة ترى في ذلك تقليصاً لنفوذها وتقويضاً لسلطانها، حيث إنها كانت تقود الحياة في أوروبا من منظور الفكر الكنسي وهو فكر يناهض النظر العقلي الذي يتوافق معه الإسلام فأسس العقيدة الإسلامية كتوحيد للخالق واتصافه بالكمال المطلق وتفرده عن مخلوقاته، وأن أحداً لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً ولو كان نبياً مرسلاً وأن المسيح عليه السلام كبقية البشر يقول

---

(١) الإسلام والثقافة العربية، أنور الجندي، مطبعة الرسالة ـ القاهرة.

(٢) هي المعركة التي دارت بين الجيوش الإسلامية بقيادة خالد بن الوليد وبين الروم وقد وقعت على ضفاف نهر اليرموك بالأردن حالياً سنة ١٣ هجرية.

(٣) هي الموقعة التي دارت بين الجيوش الإسلامية بقيادة صلاح الدين الأيوبي وبين الصليبيين سنة ١١٨٧ م واستطاع المسلمون بعدها فتح بيت المقدس.

تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[1] ويقول أيضاً: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾[2] ويقول عن النبي ﷺ: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[3] فكانت تعاليم الإسلام سبباً في انهيار ما تتمتع به الكنيسة من سلطان وإلى نبذ ما تدعو إليه من مفاهيم فكانت محاولتها لمنع الأوروبيين وبخاصة الشباب من الهجرة إلى مراكز العلم في الأندلس وغيرها، ولكن حينما اتضح للكنيسة أن هذه المحاولات لم تنجح في صد المسيحيين الراغبين في الانفتاح على الفكر الإسلامي، أقدمت الكنيسة على خطوة أخرى أكثر خطورة في وقف هذا التيار وفي تشويه صورة الإسلام والمسلمين لدى الأوروبيين فأوفدت عدداً من القساوسة والرهبان لدراسة اللغة العربية وعلومها غايتهم وراء هذه الدراسة تتبع الشبهات ليقوموا بعد عودتهم إلى بلادهم بتأليف الكتب المشحونة بالشبهات الطاعنة في الإسلام وقامت الكنيسة بإنشاء المدارس العربية في أوروبا كالمدرسة التي أنشئت في روما بقصد إعداد أجيال من المتخصصين في العلوم الإسلامية على نحو يؤهلهم لنشر ما يوافق هوى الكنيسة في منع طلاب العلم الأوروبيين من الرحلة إلى بلاد المسلمين والتلقي عن علمائهم وفلاسفتهم، وهكذا تشكلت الطلائع الأولى للاستشراق من الرهبان الوافدين من بلاد المسلمين وممن تعلموا في المدارس الأوروبية، واتصفت مؤلفاتهم عن الإسلام بالجهل المتعمد والخلط الغريب.

ويذخر التاريخ الحديث بكثير من المستشرقين الطلقيين ومن أمثلة مؤلفاتهم (تاريخ الشعوب الإسلامية) لكارل بروكلمان، والبحث عن الدين الحقيقي/ المنسنيور كولي، العقيدة والشريعة في الإسلام/ جولد تسيهر وكتاب: الإسلام والعلم/ آرنست رينان، الحضارة العربية/ جاك ريسلر ترجمة غنيم عبدون، وكذلك دخل اليهود ميدان الاستشراق ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة بتسميم أفكار المسلمين بالشبهات الملفقة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

٣ ـ الحملات الصليبية:

ومع أن الكنيسة عملت على أكثر من جهة لمحاربة الفكر الإسلامي، إلا أنها لم تبلغ غايتها وظل تيار هذا الفكر قوي التأثير في عقول الأوروبيين فاتجهت الكنيسة نحو إثارة العامّة من الأوروبيين ضد المسلمين وساندها في ذلك بعض النبلاء والحكام الطامعين في كنوز الشرق وخيراته أمثال «هنري الملاح»[١].

كذلك أتاح التمزق الذي شهده العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري فرصة تحويل تلك المجابهة إلى حملات مسلحة لمهاجمة المسلمين تحت شعار حماية الصليب وإنقاذاً لبيت المقدس من أيدي المسلمين، وتعددت الحملات منذ سنة ١٠٩٥ م إلى سنة ١١٨٧ م ولقد تمكن الأوربيون خلال هذه الفترة من نقل آلاف المخطوطات من العالم الإسلامي إلى العواصم الغربية.

٤ ـ الاستعمار:

إن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها، فقد مهد الاستشراق للاستعمار وكان عوناً له في رسم سياسته ومن أمثلة ذلك أن المستر (ايدن رئيس وزراء بريطانيا) لم يكن ليضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط قبل أن يجتمع بأساتذته المستشرقين في جامعة أكسفورد وكلية العلوم الشرقية[٢].

بل إن بعض المستشرقين اشتغلوا كموظفين في دوائر الاستخبارات الغربية ومنهم من قام بدور التجسس تحت شعار الإسلام أو البحث الأكاديمي، أما بعد خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية فقد خلفوا وراءهم ثقافة ومثقفين يدينون لهم بالولاء ويذودون عن مقاصدهم.

---

(١) لا شيوعية ولا استعمار، عباس محمود العقاد، ص ١١٨، ط ٢، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧١ م.

(٢) التبشير والاستشراق، محمد عزت الطهطاوي، ص ١٣، مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

المستشرقون وعالمية الدعوة الإسلامية:

يعد اطلاع المستشرقين على العلوم الإسلامية اطلاعاً محكوماً بالرغبة في مهاجمة الإسلام عند أكثرهم باشروا الطعن في الفكر الإسلامي إما بالتشكيك في القرآن كمصدر للفكر الإسلامي ومعجزة للنبي الخاتم ﷺ أو بإثارة شبهات حول بعض آياته أو بالقدح في المنزّل عليه محمد ﷺ. ومن افتراءاتهم التي رموا بها الفكر الإسلامي التشكيك في مقصد من مقاصده وهو عموم رسالة الإسلام فزعموا أنه دين للعرب ومنهم من ادعى أنه دين لا أصل له.

يقول المستشرق وليم موير (إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد وإنه على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فها محمد ﷺ نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها فقد كان تفكيره غامضاً لأن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلّا لها، وأن محمداً ﷺ لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلّا للعرب دون غيرهم وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ولكنها قد اختمرت ونمت بعد ذلك)[1].

ومن الغريب أن يشك وليم موير في صحة دعوى عموم الرسالة وأن يبني شكه هذا على أن محمداً ما كان يعرف غير الجزيرة العربية فهل كان خافياً على هذا المستشرق وغيره صلة قريش بدول ذلك العهد وما أتاحته لهم التجارة من فرصة اتصال بالشعوب الأخرى ومن خبرة بشؤون الأمم وأحوالها وأما قوله بأن هذا الدين لم يهيأ إلا لبلاد العرب فإن آيات القرآن الكريم صريحة في دعوة العرب وغيرهم إلى هذا الدين، كما أن أحكامه مبنية على علل وأغراض لا توافق طبيعة العرب وحدهم، بل تناسب جميع الناس وإلا فما معنى الاستثناءات التي جعلت لتيسير المشقة كالتيمم عوضاً عن الماء عند الضرر إلى غير ذلك، مما يجعل الإسلام ميسوراً في أحكامه العملية صالحاً لكل زمان ومكان، ويقول المستشرق الإيطالي «كيتاني»[2]: (لم يتخط محمد بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم ص ١٦٩، ط ٣، مكتبة النهضة القاهرة ١٩٦٣ م.

(٢) ولد المستشرق ليوني كيتاني سنة ١٨٦٩ بمدينة روما بإيطاليا وتخرّج من جامعتها وكان يتقن عدة لغات ويعد أكبر مستشرق اشتغل بالتاريخ الإسلامي وكتابه «حوليات الإسلام» من أخطر ما كتب عن التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية.

الوقت إلى هذا الدين)[1]. ويعاضده المستشرق الألماني كارل بروكلمان فيقول: «لقد بعث محمد إلى العرب قبل كل شيء ولكن على دينه الإسلام أن يعمل لإحياء ملة إبراهيم الخالصة التي حرّفها اليهود والنصارى ونشرها في أرجاء العالم كله وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة ما إذا كان النبي نفسه استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية»[2].

وتناسى هذان المستشرقان أن عالمية الإسلام لم تقف على الدليل النظري في عهد الرسول ﷺ بل إنه باشر عملياً تنفيذ عالمية الدعوة يوم أن سنحت له الفرصة بعد صلح الحديبية حيث أرسل في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام ويحملهم إثم أتباعهم إن لم يبلغوهم، فقد ثبت أن الرسول الكريم أرسل الكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى عبادة الله وحده فبعث دحية الكلبي إلى قيصر ملك الروم وعبد الله بن السهمي إلى كسرى فارس وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس عامل هرقل على مصر[3] وغيرهم كثير.

ويقول المستشرق سندورز في مقال بعنوان الخليفة عمر المستعمر العربي: «إن ابتداء انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية إنما كان من عمل هذا الخليفة ولم يكن عملاً داخلاً في برنامج الدعوة المحمدية لأن محمداً عليه السلام لم يفكر في دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام»، ويضيف سندورز قائلاً: «وما من دليل واف يدل على أن محمداً كان يتصور الإسلام ديناً عالمياً لجميع الناس أو يتصور أنه أرسل لهداية الشعوب غير العربية»[4].

ويرى سندورز أن كلمة أمير المؤمنين تعني باللغة العربية إمارة الجيش وأن تحويل لقب عمر من خليفة رسول الله إلى أمير المؤمنين كان على ما يظهر فاتحة عصر الفتوح إذ يصبح الخليفة قائداً أولاً للامبراطورية التي أخذت في الاتساع».

---

(١) الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل، ص ٥٤، ط ٣، دار الفكر دمشق ١٩٧٧ م.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ص ٧٠، ٧١ ط ٩، دار العلم بيروت ١٩٨١ م.
(٣) سيرة ابن هشام ج ٣، ٤، ص ٦٠٧ المجلد الثاني، دار الكنوز الأدبية.
(٤) الإسلام دعوة عالمية، العقاد ص ٤٢٤، ط ١، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٤ م.

وللرد عليه نقول: أما قوله بأن أمير المؤمنين تعني إمارة الجيش فهو جهل باللغة العربية، لأنه ورد في معاجم اللغة العربية أن كلمة الأمير مفرد جمعه أمراء ويقصد به الملك، ابن الملك، الحاكم، المشاور، وأن كلمة أمير المؤمنين تعني لقب خلفاء المسلمين[1]. وإذا كان هذا المستشرق قد استند في آرائه الفاسدة على سوء نية وسوء تطبيق لعلم المقارنة بين الأديان التماساً لوجوه الشبه التي لا وجود لها بين الدعوة إلى الموسوية والدعوة إلى المسيحية والدعوة إلى الإسلام إذ كان يتصور أنه مثلما دخل أتباع موسى أرض الميعاد بعد وفاته وقام أتباع عيسى بتوجيه الدعوة إلى العالم بعد حصرها في بني إسرائيل أيام حياته، فبالمقابل يكون خلفاء النبي هم الذين نشروا الإسلام بين الأمم غير العربية ولم يكن ذلك من برنامج محمد ولا من أصول رسالته فهو (يرمي الإسلام بداء المسيحية).

وقد قام الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف[2] بالرد على هذه الشبهة قائلاً: «إذا اكتفينا بالنظر في القرآن الكريم وحده ففيه أكثر من أربعين آية يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين وهذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه عليه السلام قد أرسل إلى الناس كافة، وأن القرآن قد تنزّل عليه ليقرأه على الناس[3].

ويستمر المستشرقون في طعنهم بعالمية الإسلام فيقولون: إن النداء بـ يا أيها الناس المستعمل في السور المكية قد استبدل به فيما بعد يا أيها الذين آمنوا حين استقر النبي في المدينة وهم يهدفون بهذه الشبهة إلى تخصيص الناس الموجه إليهم النداء بأصحاب محمد من العرب.

وهذه الملاحظة مغلوطة من أساسها ولا يمكن أن تتخذ الأهمية التي يراد إضفاؤها عليها في الغرب إذ لا يمكن النظر إلى النداء بمعزل عن سياقه العام فحين يكون الخطاب موجهاً إلى البشرية جمعاء تستخدم صيغة يا أيها الناس، وبالمقابل فإن يا أيها الذين آمنوا تستعمل عند مخاطبة المحصلين للأصل وهو الإيمان بالعقيدة

---

(١) معجم الرائد باب أمر ص ٢٣٤، ط ٤، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨١ م.

(٢) مدرس فلسفة بإحدى المدارس الثانوية ـ جمهورية مصر العربية.

(٣) عالمية الدعوة الإسلامية، العقاد ص ١٣٤.

لأنهم هم الذين يتأتى منهم تطبيق الأحكام دون تقيدهم بجنس معين، ومع ذلك فإن نداء الناس قد ورد مرات كثيرة في السور المدنية مثل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم**﴾[1].

وإذا كانت كلمة الناس الواردة في القرآن تحتمل اللبس في أذهان المستشرقين لسبب من أسباب التأويل في اللغة أو المنطق فقد فهم اللغويون من إطلاق كلمة الناس أن الألف واللام للجنس وليست للعهد لأنها لا تحف بها قرائن تدل على تخصيصها بمكان مخصوص أو أفراد معينين، بل هناك آيات تحف بها قرائن تؤكد أن المراد منها جنس البشر كقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾[2].

وكقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾[3].

وتجدر الإشارة إلى أن المستشرقين نفعوا الإسلام من حيث أرادوا ضرره فوضعوا فهارس للمخطوطات الإسلامية، فبروكلمان يفهرس المخطوطات الإسلامية في العلوم المختلفة ويدل على أماكن وجودها في العالم في كتابه «تاريخ الأدب العربي»، وفنسنك وضع معجماً مفهرساً لألفاظ الحديث النبوي كما وضع قبله «فلوغيل» معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن الكريم وطبع القرآن الكريم بجهود القساوسة لأول مرة في البندقية سنة ١٥٣٠ م وطبع مرتين أخريين بأيد مسيحية في سنة ١٦٩٤ م بهامبورغ، وفي المرة الثالثة سنة ١٦٩٨ م في بادو، في حين لم يطبع القرآن تحت إشراف إسلامي إلا في سنة ١٧٨٧ م في بطرسبورغ تحت رعاية مولاي عثمان وطبع في الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية آنذاك سنة ١٨٧٧ م أما الطبعة المعروفة اليوم والتي كانت تحت إشراف مشيخة الأزهر فلم تخرج إلا سنة ١٩٢٣ م[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح ص ٩٩، ١٠٠، دار العلم للملايين - بيروت، ط الخامسة عشرة، ١٩٨٣ م.

والحق أقول: ليس كل المستشرقين ينكر عالمية الدعوة بل إن منهم من يقرّ بها، فهذا توماس أرنولد يقول: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها، ولمّا لم يكن هناك غير إله واحد كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة»[1].

ويقول المستشرق الألماني غوستاف لوبون[2] في كتابه حضارة العرب: إن محمداً رغم ما يشاع عنه من قبل خصومه ومخالفيه في أوروبا قد أظهر الحلم الوافر والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمة.

ويقول المستشرق المجري جولد زيهر ما نصه: «هل كان محمد نبياً وطنياً أم عالمياً أرسل إلى الناس كافة؟ أعتقد أننا لا نستطيع إلا أن نأخذ بوجهة النظر الثانية ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك»[3].

ومن المستشرقين من وضع الحقيقة نصب عينيه، فعلم أن عالمية الإسلام حق فآمن بها وبرهن على ذلك عملياً على عموم رسالة الإسلام ومنهم «اللورد هيدلي الذي أسلم وكان لإسلامه ضجة كبيرة في العالم الغربي» حيث يقول: «يجب عليّ أن أعترف أن زيارتي للشرق ملأتني احتراماً عظيماً للدين المحمدي السلس الذي يجعل الإنسان يعبد الله طول مدة الحياة لا في أيام الآحاد فقط»[4].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد ص ٤٨، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة.
(٢) عالم فرنسي متخصص في علم النفس والاجتماع ولد سنة ١٨٤١، وتوفي سنة ١٩٣١ م.
(٣) محمد رسول الإسلام، محمد فهمي عبد الوهاب، ص ٥٩، ط ٢، دار أبو سلامة تونس ١٩٨٥ م.
(٤) أوروبا والإسلام د. عبد الحليم محمود ص ٥٢ مطابع الأهرام ـ القاهرة.

الفصل الثاني

عالمية الإسلام في القرآن

إن فحوى الخطاب القرآني في العقائد والأحكام مرسل غير مقيد بمكان مخصوص وزمن محدود أو أفراد معينين، فالوحدانية صفة كمال لله تعالى يدركها المخاطب بسعة أفق تسع السموات والأرض ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1] فالسموات والأرض موطن الدليل وليس بيئة محدودة بصحراء العرب وكذلك الشأن في الأحكام ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾[2] مع أنه حدد مكة قبلة ولكن للناس جميعاً أينما كانوا ﴿وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾[3].

والأخلاق الإسلامية أخلاق عامة لا تتقيد بفضيلة عربية تعد رذيلة في الأمم الأخرى بل إنها فضيلة إنسانية، فلم يمتدح القرآن مثلاً الثأر والعصبية والإسراف والتبرم بالأنثى بل وضع مبدأ القصاص عوضاً عن الثأر والقصاص مطلب إنساني والمساواة الإنسانية عوضاً عن العصبية وقوامه الإنفاق بدلاً من الإسراف، وجعل العمل الصالح مقياس التفضيل وليس الذكورة أو الغنى أو الحسن أو الجاه فقال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4].

وهكذا يستوحي قارىء القرآن من آياته عموم الخطاب لجميع الناس في

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

جميع البيئات على اختلاف الأعصر في الجانب العقائدي والجانب التشريعي والجانب الأخلاقي ومع هذه الروح العامة التي تظللنا في أوامر القرآن وأخباره نقرأ آيات تصرح بعموم الرسالة منها.

قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾[1].

يقول الإمام النسفي في تفسير هذه الآية: وما أرسلناك إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج أحد منهم[2].

وقال الزجاج: الكافة تعني الإحاطة والمعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ والتاء على هذا تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامّة.

والمتبادر للذهن من كلمة كافة أنها تعني عموم الأزمان والأماكن والأفراد وتذييل الآية بقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ترسيخ لمبدأ عموم الرسالة الذي أكده صدر الآية فقد تكرر لفظ الناس ووصفوا بأن أكثرهم لا يعلمون فلا يوظفون عقولهم وما علموه بها في إطاعة دعوة الرسول وقال ولكن أكثر الناس ولم يقل أكثرهم، فآثر التصريح في مقام يجوز فيه التلميح، اهتماماً بالغرض الأساسي الذي قصدت إليه الآية وهو إثبات عموم رسالة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3] تأكيد ضمير المخاطبين بوصف جميعاً الدال نصاً على العموم لرفع احتمال تخصيص رسالته[4] وسياق الآية في لحاقها يدل على عموم رسالة الإسلام حيث وصف الخالق المدعو إلى عبادته بأن له ملك السموات والأرض، فآفاق الدعوة يجب أن تتسع حتى تشمل الأحمر والأسود والجن والإنس.

وقوله تعالى: ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[5]، قال

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) تفسير النسفي جـ ٣، ص ٣٢٥ دار الكتاب العربي بيروت.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ج ٩، ص ١٣٩، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

الزمخشري في تفسير هذه الآية: إني لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم. وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً[1] وقوله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[2] فانسداد باب الوحي بعد محمد يستدعي أن تكون دعوته عامة لأن الناس في حاجة إلى رسول ينذرهم ويبشرهم ويبين لهم الأحكام الإلهية وعقاب الله للمسيئين وثوابه للمحسنين، وذلك منوط بإرسال الرسل ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[3].

فهل يبقى الناس من لدن محمد ﷺ بغير عقيدة وشريعة إلى يوم القيامة؟ فكون النبي خاتم للرسل والأنبياء متضمناً لعموم رسالته من ذلك الوجه البين وهو حاجة الناس إلى الرسل والأنبياء وقوله تعالى: ﴿**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾[4] المراد بالعالمين جميع الأمم من البشر والجن لأن العالم إذا أطلق ولم يقيد بوصف دلّ على ما سوى الله من مخلوقات، ولا شك أن وصف العقلاء الذين كلف الرسول بإنذارهم وصف يعم جميع الناس والآية سائرة في سياق العموم بل السورة كلها.

وقوله تعالى: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**﴾[5].

إن ظهور الإسلام على الدين كله حصل في العالم باتباع أهل الملل إياه في سائر الأقطار بالرغم من كراهية أقوامهم وعظمائهم له ومقاومته بكل حيلة، ومع ذلك فقد ظهر وبان فضله على الأديان التي حاورها واتضحت سلامته من الخرافات والأوهام التي تعلقوا بها وما صلحت بعض أمورهم إلا فيما حاكوه من

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، ج ٢، ص ١٠، مكتبة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأخيرة ١٩٧٢ م.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

أحوال المسلمين وأسباب نهوضهم[1]، وإن اتجاه القرآن إلى المشركين والمجوس وأهل الكتاب يناقشهم في عقائدهم الباطلة ويدعوهم إلى الإسلام طريق الله المستقيم دليل آخر على عالمية هذا الدين.

قال تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**[2].

وقال أيضاً: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾**[3].

ويفهم من النصوص القرآنية أيضاً أن رسالة محمد ﷺ لم تكن إلى البشر جميعاً فحسب ـ بل كانت أيضاً إلى الجن ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى: **﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً﴾**[4].

وقد أفرد القرآن الكريم للجنّ سورة بأكملها تدل على التوجه إليهم بخطاب الإسلام كما توجه إلى الناس وجاء في هذه السورة على لسان الجن قولهم **﴿وأنّا لمّا سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾**[5].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج ١٠، ص ١٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ١٧.
(٤) سورة الجن، الآية: ١.
(٥) سورة الجن، الآية: ١٣.

الفصـــل الثالـث

إبطال دعوى اختصاص الإسلام بالعرب

مع صراحة الآيات السابقة في عالمية الدعوة فإن المخالفين حاولوا معارضتها بادعاء خصوصية الإسلام بالعرب وأقاموا دعواهم على عروبة النبي ﷺ وبعثه بين قومه وكون القرآن نزل بلسان عربي وإن كانوا قد عجزوا عن تعريف منطوق القرآن فقد لجؤوا إلى تحريف مقاصده بإيهام دلالة بعض الآيات على خصوصية الدعوة، ومن الآيات التي تأولوها قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ وقوله تعالى: ﴿**لتنذر أم القرى ومن حولها**﴾ وقوله تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**﴾ وقوله تعالى: ﴿**لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك**﴾ وما كان في معناها مستندين إلى ظاهر هذه الآيات دون النظر إلى سياقها ومقصدها، وأن المقصود بأم القرى مكة وما حولها من المناطق العربية بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك إذ حاولوا قصر النصوص الدالة على عموم الرسالة على عموم العرب وحدهم، فكلمة كافة تعني عندهم العرب كافة والعالمون عالم العرب والجميع هم جميع العرب ومما يدحض شبهتهم ما يلي:

أولاً: نحن نتفق معهم في أن الرسول ﷺ عربي ظهر في قومه العرب وأن القرآن نزل بلسان العرب ولكننا لا نسلم أن هذا دليل على عدم عالمية الدعوة، لأن جعل الدعوة في أمة العرب أولاً مقدمة لا تؤدي إلى النتيجة التي قرروها لما جمعته هذه الأمة من خصائص هيأتها لحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم ومن هذه الخصائص:

١ ـ الموقع الجغرافي:

٢ ـ أن العرب هم أخلص عنصر بحيث يأمنون من الصراعات الداخلية وهم يتصدون لحمل الدعوة.

٣ ـ أن العرب لا يعانون من عقدة التعالي على الأمم الأخرى، لأن حياتهم الحضارية أقل تعقيداً من الأمم الأخرى فلو افترضنا أن الدعوة توجهت إلى الفرس أو الروم فإنهم ربما يستنكفون من دعوة الشعوب الأخرى لما كانوا يتوارثونه من مذاهب فلسفية.

٤ ـ أن العرب أمة قريبة من التوحيد غير خاضعة لطبقة الكهنة والأحبار.

ثانياً: إن استدلالهم بالآيات الموهمة بخصوصية الإسلام استدلال باطل لا يدل على فهم لمعاني آيات القرآن الكريم.

فالأميون في قوله تعالى: **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾**[1] هم العرب في مقابلة أهل الكتاب وكما في قوله تعالى: **﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾**[2] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ.

وقوله تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**[3] هذه النذارة الخاصة لا تنافي النذارة العامة بل هي جزء من أجزائها[4].

ويقول الرازي: إن الله بدأ بالرسول نفسه فتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر بقوله له: **﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾**[5] ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً ثم على الأقارب ثانياً لا يكون

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٤) تفسير ابن كثير، ج ٥، ص ٢٠٩.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٣.

لأحد مطعن عليه البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع[1]، وأردف إنذار الأقربين بخفض الجناح للمتبعين من المؤمنين سواء كانوا من أقاربه أو من غيرهم ليوضح التدرج في الدعوة ولا يفيد قصراً لهما.

ووجه تخصيص عشيرته ﷺ الأقربين مع عموم رسالته دفع توهم المحاباة وأن الاهتمام بشأنهم أهم وأن البداءة تكون بمن يلي ثم من بعده[2] كما في قوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿لتنذر أمّ القرى ومن حولها﴾[4] يقول ابن كثير في تفسير كلمة من حولها أي سائر البلاد شرقاً وغرباً[5]. ولقد ثبت في بحوث العلم الحديث واكتشافاته أن مكة المكرمة هي مركز الدائرة في العالم كله، ولذلك فإن كلمة من حولها قد تعني مساحة قليلة ومحيطة بمكة ولكنها تتسع شيئاً فشيئاً حتى تشمل العالم كله.

فهي تصوير لنور الإسلام حيث انتشر من مكة حتى عم الجزيرة العربية ثم تخطاها إلى آفاق الشرق والغرب.

ولحاق الآية يشير إلى عدم اختصاص نور الإسلام بأم القرى وما جاورها حيث عطف على قوله أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع أي تخوف الناس من أهوال يوم القيامة وآثر التعبير بيوم الجمع دون يوم القيامة تحقيقاً لمعنى العموم وقسم الناس إلى فريقين: فريق يثاب بالجنة وفريق يعاقب بالنار. وقوله تعالى: ﴿**لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك**﴾[6] وإنما اقتصر على قريش أو العرب دون سائر الأمم التي بعث إليها النبي ﷺ لأن المنة عليهم أوفى، إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل فكان نظامهم مختلاً غير مشوب بأثارة من شريعة معصومة فكانوا في

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ج ١٢، ص ١٧٢، ط ١، دار الفكر - بيروت - ١٩٨١ م.
(٢) روح المعاني للألوسي، ج ٧، ص ١٣٥، دار الفكر، بيروت - طبعة جديدة ١٩٧٨ م.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٧.
(٥) تفسير ابن كثير، ج ٦، ص ١٨٨، ط ٥ دار الأندلس - بيروت ١٩٨٤ م.
(٦) سورة القصص، الآية: ٤٦.

ضرورة إلى إرسال نذير، وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم ولا ما يقتضي أن غيرهم ممن أنذرهم محمد ﷺ لم يأتهم نذير من قبله مثل اليهود والنصارى وأهل مدين[1].

فالكلام منصب على بيان افتقارهم قبل محمد إلى نذير يدعو بمثل دعوته وليس منصباً على تخصيصهم بتلك الدعوة.

وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2] بيان بأن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدأ إنزاله في أشرف شهر من شهور السنة فكمل من كل الوجوه[3].

ثالثاً: أما استدلالهم بنزول القرآن باللغة العربية فيرد عليه أنه ليس من المعقول أن ينزل الوحي بلغة غير لغة من نزل عليهم بداية لأنهم حينئذ لن يفقهوا شيئاً فتتعثر الدعوة في خطواتها الأولى وتتعطل عن الانطلاق، كما أنه من غير المعقول أن ينزل بأكثر من لغة واحدة، إذ إن ذلك يستلزم تعدد الأساليب وهو يؤدي إلى اختلاف معاني الدلالات فينتج عنه اختلاف الأحكام الممسوح بها والمستنبطة من إيحاءات الألفاظ، ومن المعلوم أن الترجمة من لغة إلى أخرى مهما كانت دقيقة ستؤدي إلى اختلاف المعنى. وقد اشتهر بين الأدباء «أن الترجمة تزييف للعمل الأدبي».

ومن ذلك نخلص إلى أنه لا مانع من أن تتنوع لغات الناس وتجيء الدعوة بلغة واحدة.

رابعاً: إن اعتراف بعض هؤلاء بأن محمداً رسول إلى العرب هو إقرار للنبي بالرسالة، ومن صفات الرسل عليهم السلام الصدق والأمانة، فمن اعتقد بصدق

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ج ٢٠، ص ١٣٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣) تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٦.

النبي فعليه التصديق بما جاء في دعوته من أنه مبعوث إلى الناس كافة إذ لا يمكن تصديقه في جانب وتكذيبه في جانب آخر.

خامساً: تخصيص آيات العموم بعموم العرب قول بلا دليل لأن العام يبقى على عمومه ما لم يخصصه دليل يكون في نفس قوة العام، وهذا غير وارد فآيات العموم باقية على عمومها.

الفصـــل الرابـع

عالمية الإسلام في السنة

إن مهمة الرسول تقوم على إبلاغ الوحي وبيانه قال تعالى: ﴿**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾[1].

ويتضافر البلاغ مع البيان في تأكيد معنى عموم رسالته ﷺ إلى الناس كافة، فقد بلغ آيات القرآن المصرحة بهذا المعنى وبين أن مقاصد القرآن الكريم الدلالة على هذا المعنى، فلا يبقى بعد ذلك عذر لمكابر يجحد عموم دعوته ويدعي اختصاصها بالعرب دون غيرهم، ومن الأحاديث التي شرح بها النبي مقصد القرآن الكريم في عموم الرسالة ما يأتي:

١ ـ عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[2]. إن هذا الحديث يتفق مع صريح القرآن الكريم في وجوب إيمان أهل الذمة برسالة النبي محمد ونبوته، ولا يعد الكتابي مؤمناً إلا إذا حقق هذا الشرط فها هو النبي ﷺ يقسم بالله على أن كل يهودي وكل نصراني بلغته الدعوة المحمدية ولم يؤمن بها فهو في عداد الكافرين الذين حقت عليهم كلمة العذاب فلا معنى لادّعاء بعض الكتابيين أنهم مؤمنون موحدون مع تركهم الإيمان بمحمد ودعوته وقد سماهم

---

(١) سورة النور، آية: ٥٤.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان وجوب الإيمان برسالة النبي ج ٢، ص ١٨٦، المطبعة المصرية.

القرآن كفاراً مع أنه لقبهم بأهل الكتاب لكي يأنسوا بالإسلام، وفي الكتاب المعجز قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم**﴾[1] وقال أيضاً: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب. . . .**﴾[2].

٢ ـ عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة ـ صلّى حيث كان ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة»[3].

من خصائص الدعوة الإسلامية عموميتها لجميع البشر وذلك ما تصدر به هذا الحديث في هذه الرواية وكأن بقية الخصائص التي ذكرها النبي ﷺ ما جاءت إلا لتعضيد هذه الخاصية الأساس:

فحلية الغنائم مما يشجع على نشر دعوة الإسلام وإزالة العقبات الحائلة دون وصولها إلى عقول الناس بالجهاد، فالغنائم في الأمم السابقة تجمع في حروب معدودة وفي أوقات ضيقة بل تأكلها النار ولا يستفيد منها المجاهدون، ولكن أمة الإسلام في صراع مستمر مع أعدائها على سعة أماكن انتشارها وديمومة زمن دعوتها.

وفي قوله ﷺ: «جعلت لي الأرض طيبة طهوراً تيسير على الناس في إقامة شعيرة الصلاة التي تتلو الشهادتين في الأهمية مما يجعل تنفيذها ممكناً على اختلاف الأزمان والأماكن والأحوال والطبائع خلافاً لتأدية هذه العبادة في الأمم السابقة حيث إنها لا تصح إلا في البيع والصلوات المخصوصة، ولكي يكفي الله نبيه وخلفاءه الذين يسيرون على لهجة مشقة القتال الدائم فقد نصرهم بقذف الرعب في قلوب أعدائهم».

---

(١) سورة البينة، آية: ٦.

(٢) سورة التوبة، آية: ٢٩.

(٣) صحيح مسلم كتاب المساجد ج ٥، ص ٣.

وعندما يستعدون لمواجهة العدو ولا يكون هناك مناص من لقائه فإنه يقابلهم بروح معنوية هابطة وقد يجبن عن لقائهم بما يقذف في قلبه من الرعب.

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلاّ وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[١].

فالنبي ﷺ يقرر أنه جاء مكملاً ولم يأت هادماً لما جاء به الأنبياء من قبله مما يتجانس مع روح عالمية الدعوة الإسلامية، فلو ادعى النبي هدم العقائد السماوية السابقة لكان بذلك تنفيراً لأهل الكتاب من دعوة الإسلام فالانسجام قائم بين عموم رسالة الإسلام وخصوصية الرسالات السابقة فهي تمهيد له حيث جاءت الدعوة المحمدية وقد نضجت عقول أهل الأديان واستأنست لوحي السماء.

٤ ـ قال ﷺ لزيد بن ثابت: أتحسن السريانية؟ إنها تأتيني كتب بها، قال: لا، قال ﷺ: «فتعلمها، يقول زيد: فتعلمتها في سبعة عشر يوماً»[٢] أو لسنا نرى اليوم دوائر الدول الكبرى تتخذ مستشارين مثقفين في لغات وثقافات الشعوب الأخرى من أجل توثيق الصلات ولنشر أفكار تلك الدوائر بين شعوب العالم لأنها ترى أن تلك الأفكار جديرة بأن تعم الناس، ولكننا لا نرى الدول الصغيرة تنحو هذا المنحى لأنها مشغولة بأحوالها الداخلية ولا ترى أن آراءها قابلة للتعميم، وهكذا يؤكد الرسول الكريم ﷺ من خلال هذا الحديث عالمية دعوة الإسلام وحاجته إلى الترجمة بلغات الآخرين.

٥ ـ وفي يوم الخندق أمل النبي ﷺ في نشر الإسلام في سائر الأرض وذلك عندما ضرب بمعوله الصخرة ثلاث ضربات وفي كل مرة تلمع برقة منها فسأل سلمان الفارسي رسول الله ﷺ وقال له: بأبي وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيته

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل ذكر أن النبي خاتم النبيين ج ١٥، ص ٥١.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الاستئذان ج ٥، ص ٦٨، الفتح الرباني على مسند أحمد ـ كتاب العلم ـ باب فضل العلوم والعلماء ج ١، ص ١٤٥، ط ١ ـ القاهرة. مكتبة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ١٩٧٥ م.

يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟ فقال عليه السلام: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق»[1] ومن حسن التوافق بين السائل سلمان والمجيب صاحب الدعوة أن السائل كان فارسياً يسأل عن دلالة من دلالات عموم دعوة الإسلام ليكون سلمان من حملة هذه الدعوة إلى قومه.

وقد أنبأ النبي ﷺ بأن الإسلام سيعم العرب والعجم وذلك قبل أن يدور بخلد العرب وغيرهم أي شيء عن حياة الفتوح والحروب بزمن طويل.

(١) سيرة ابن هشام ج ٣، ٤ ص ٢١٩، المجلد الثاني.

الفصـــل الخـامس

خصوصية الديانتين اليهودية والنصرانية

صرحت الأديان السالفة بتخصيص دعوتها لقوم معينين، وحسبك أن موسى عليه السلام مع اختراقه أمماً كثيرة في جهات مرور بني إسرائيل في طريق التيه قاصدين الأرض المقدسة لم يدع إلى اتباعه غير قومه السائرين معه، واليهود في عهد موسى وما بعده من الأنبياء لا يدّعون عموم رسالتهم لزعمهم أنهم شعب الله المختار الجدير بالرسالات السماوية دون غيره، فهم ينظرون إلى الآخرين نظرة استعلاء لادعائهم أنهم أبناء يهوا الذي يكرم أبناءه بالدين القويم فلا يسمحون لأنفسهم بالدخول في شريعة أخرى، كما أنهم لا يسمحون لدينهم أن يكون شريعة لغيرهم.

ومع أن عيسى عليه السلام مرسل إلى بني إسرائيل فإن أتباعه لم يتمسكوا بهذا المبدأ ونقلوا شريعته إلى قوم آخرين، بل ادعوا عموم تعاليمها لجميع الناس بالرغم من أن عيسى لم يدع إلى اتباع دينه غير بني إسرائيل، أما ما ورد في بعض الأناجيل المحرفة من أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بدعوة الناس إلى دينه حين ظهر لهم بعد رفعه في مرأى غير معتاد، وأخذ ظاهر هذا الكلام بدون تأويل ليس حجة على عموم دعوة عيسى للناس كلهم لأنه بصلبه في اعتقاد النصارى وبرفعه في الاعتقاد الصحيح قد انتهت رسالته فما ورد بعد ذلك عنه فهو مما لا تثبت به شريعة.

إن توسيع الدعوة في النصرانية ليس ثابتاً عن رسولها عيسى بل كان اجتهاداً

من أصحابه فصار إرهاصاً لنبوة محمد وتصديقاً لاختصاصه بفضل الدعوة العامة[1].

والمسيح نفسه لم يدّع يوماً أنه رسول الله إلى العالمين، بل الذي نقل عنه أنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة»[2].

ومن الأغراض السامية التي جاء المسيح لتقريرها البشارة باقتراب ملكوت السموات إذ جاء على لسان موسى ـ أن الله يرسل من بين إخوته نبياً ويجعل كلامه في فمه، وبالرغم من أن المسيحيين يحملون هذه البشارة الواردة في التوراة على أنها المسيح إلا أنها لا تنطبق عليه لأن المفروض وجود المماثلة الحقيقية فالمبشر به نبي يكون صاحب شريعة متكاملة ورسالة المسيح ليست كذلك، بالإضافة إلى أن موسى كان متزوجاً وله أولاد بخلاف المسيح، وموسى حارب أعداءه ولم يفعل المسيح ذلك، وهكذا يتبين أن هذه الصفات تنطبق تماماً على خاتم الأنبياء محمد ﷺ ويكون بذلك هو المبشر به[3].

وقد ثبت قطعاً أن مخاطبات المسيح كانت موجهة إلى بني إسرائيل دون غيرهم، وفي القرآن الكريم كل الدلالات القطعية المؤكدة لهذا المعنى يقول تعالى: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾[4].

على أن خصوص رسالة كل نبي من الأنبياء السابقين بأقوامهم ضرورة لا محيد عنها لأنها تتمشى مع طبائع الأمور الحياتية آنذاك حيث كانت محدودة الرقعة ضئيلة السكان قد ضرب التخلف الفكري والاجتماعي والإنساني أطنابه بين شعوبها، لذا كان لا بد في مثل هذه الصورة الحياتية للبشر من أن يرسل لكل قوم من يعلمهم ويهديهم ويوضح لهم الطريق الصحيح الذي يكفل لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم يؤكد ما ثبت تاريخياً من أن رسالات الأنبياء والرسل السابقين كانت خاصة فكان كل رسول يبعث إلى قومه وحدهم، قال

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور ص ١٣، الشركة التونسية ـ تونس.
(٢) إنجيل متى ١٥، ٢٤.
(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار ص ٣٩٧ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ط ٣.
(٤) سورة آل عمران، آية: ٤٩.

تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾[1].

﴿ولكل قوم هاد﴾[2].

﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[3].

﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[5].

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾[6].

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾[7].

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾[8].

وبالرغم من ذلك كله فإن المسيحية بعد المسيح خرجت عن مسارها الصحيح وأخذت تسير في مسارات تتجه بها إلى بيئات وقوم لم يكونوا مخاطبين بها على لسان عيسى، وقد كان لبولس جهود مكثفة في تحديد هذه المسارات حيث بعث بالرسائل إلى العواصم وأرسل الرسل إلى الملوك والأمراء.

رد دعوى بولس:

إن ما نذكره عن بولس هو مقتطفات مما كتبه هو عن نفسه أو كتبها عنه

---

(١) سورة الروم، آية: ٤٧.
(٢) سورة الرعد، آية: ٧.
(٣) سورة فاطر، آية: ٢٤.
(٤) سورة يونس، آية: ٤٧.
(٥) سورة النحل، آية: ٣٦.
(٦) سورة هود، آية: ٥٠.
(٧) سورة هود، آية: ٦١.
(٨) سورة هود، آية: ٨٤.

تلميذه لوقا، يقول بولس: «سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت اضطهد كنيسة الله باقراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي»[1].

ويقول عنه تلميذه لوقا: كان شاول راضياً بقتل المسيحيين وكان يسطو على الكنيسة ويدخل البيوت ويجر نساء ورجالاً ويسلمهم إلى السجن[2]، ومن الغريب أن توجد هذه الصفات في إنسان ثم يصبح مصلحاً داعياً إلى ديانة.

وهكذا أخذ بولس الزمام في يده بعد دخوله المسيحية فهو لم ير المسيح قط ولا سمعه يتكلم ولكنه ادعى باتصال الوحي بينه وبين المسيح وعلى هذا لم يكن لبولس أساتذة في المسيحية تلقى عنهم بل كان له تلامذة أمثال لوقا الذي كتب قصة حياة بولس ووصف أعماله وأشاد بمعجزاته في رسالته أعمال الرسل.

ويعترف الكتاب المسيحيون أن الحواريين وتلاميذ المسيح الأول لم يفهموا هذه الحقيقة حتى اكتشفتها بصيرة بولس «ولم يفقه التلاميذ الأولون في بادىء الأمر أن الحدود اليهودية الضيقة قد زالت، ولكن عبقرية الرسول بولس قد فطنت إلى تضاعيف الرسالة من هذه الناحية وعرف أنها لليهودي والأممي والبربري والذكر والأنثى على السواء دون تفريق أو تمييز»[3].

وقد اضطر بولس أمام هذا التحول في تاريخ المسيحية أن يدخل التعديلات والتعليلات الجديدة لتزول الهوة بين ديانات بني إسرائيل وأفكار الأمم الأخرى التي فتح لها باب المسيحية، ولهذا قال بالتثليث وبنزول عيسى ليكفر بنفسه عن خطيئة البشر، والمتتبع لتاريخ المسيحية يلاحظ أن المنخرطين فيها كان معظمهم من الغرب بينما لم يتبعه من الشرق إلا القليل ذلك لأن الشرق هو مهبط الديانات السماوية والتي كانت الوحدانية في قمة تعاليمها وقد وضح بولس نفسه نفور الشرق من تعاليمه حيث قال في رسالته إلى تلميذه تيموثاوس: «أنت تعلم أن جميع الذين

---

(١) مقارنة الأديان، أحمد شلبي ج ٢، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق ج ٢، ص ١١١، ١١٢ ط ٨، مكتبة النهضة ـ القاهرة: ١٩٨٥ م.

(٣) مقارنة الأديان ج ٢، ص ١١٩.

في آسيا ارتدوا عني»[1]. ومن أدلة ذلك أيضاً فرار أريوس إلى الصحراء لأنه لا يعترف بعقيدة التثليث وهو من مصر بينما بارك قسطنطين التثليث لأنه يوافق وثنيته السابقة.

إن رسالة عيسى خاصة إلى بني إسرائيل وتعميمها من بعض أعلامها انحراف عن مسارها الصحيح ولقد ثبت في الإنجيل الذي بين أيدينا أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: «لا تسلكوا إلى سبيل الأجناس ولكن اختصروا على الغنم الرابضة من نسل إسرائيل»[2].

ومما يؤكد خصوصية رسالة عيسى عليه السلام ما أخبر عنه عندما سعت إليه المرأة الكنعانية تسأله الرحمة فلم يجبها بكلمة، ولما تقدم منه تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا أجاب: لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»[3].

وفي العهد القديم الذي تعترف به الكنيسة كاعترافها بالعهد الجديد ما يؤكد أن كل البشارات تنصب على سيدنا محمد ﷺ. فقد جاء في سفر أشعيا «غنوا للرب أغنية جديدة تسبحه من أقصى الأرض أيها المنحدرون في البحر وملئه، والجزائر وسكانها لترفع البرية ومدنها صوتها ليترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر»[4].

وهذه أوصاف تنطبق على الدعوة الإسلامية تماماً، لأن جبل سالع المذكور هو الجبل الموجود غرب المدينة المنورة، ولقد سكن اليهود قرب المدينة المنورة انتظاراً منهم لهذا الرسول ولكنهم حين بعثته كابروا ورفضوا الإيمان برسالته.

وفي ختام حديثنا عن خصوصية هاتين الديانتين نعرض لبيان مسألة عقدية وهي أن توجيه خطاب الدعوة إلى قوم لا ينتمون إلى قوم النبي في حدود الزمان

---

(١) مقارنة الأديان ج ٢، ص ١٢٠.
(٢) إنجيل متى ١٥، ٢٤.
(٣) إنجيل متى ١٥، ٢١ - ٢٤.
(٤) سفر أشعيا الإصحاح ٤٢، فقرات ١٠، ١١، ١٢.

والمكان لقومه ليس دليلاً على عمومية هذه الدعوة، فهم بمعاشرتهم لقوم النبي الداعي صاروا مطالبين بالاستجابة للدعوة وإن لم يكونوا موصولين به عرقاً، فالعبرة بخصوصية الزمان والمكان وليس بخصوصية الأفراد مع العلم بأن أساس الدعوة قائم على قوم النبي الذين ينتمي إليهم، فقد يبعث نبي بدعوة خاصة إلى قوم ليسوا قوماً له فهذا لا يرفع رسالته إلى مصاف العالمية فهو غير مأمور بتبليغها على وجه العموم قال تعالى: ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً**﴾[1] وقد بعث إلى قومه في المرة الأولى وقال في موضع آخر ﴿**كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون**﴾[2].

فشعيب مرسل إلى قومه خاصة من أهل مدين في المرة الأولى وإلى غير قومه من أصحاب الأيكة كذلك على وجه الخصوص في المرة الأخرى، فإرساله إلى غير قومه لم يثبت عموم رسالته.

وموسى قد خاطب فرعون وزملاءه بدعوته مع أنه مرسل إلى بني إسرائيل لانتصارهم في ذات الزمان والمكان الذي ظهرت فيه الدعوة ولذلك آمن به السحرة وآمن به رجل من آل فرعون قال تعالى: ﴿**فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين**﴾[3] وقال أيضاً: ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه**﴾[4] بل آمنت به زوج فرعون ﴿**امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله**﴾[5].

فلا يعد خطاب النبي لغير قومه ذريعة لمن يدعي عمومية غير رسالة الإسلام لخصوصية الزمان والمكان أما دعوة الإسلام فهي عالمية لا تنحصر بمكان في الأرض ولا تتقيد بفترة من الزمن، بل هي مستمرة من وقت البعثة المحمدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

(١) سورة هود، آية: ٨٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٧٦، ١٧٧.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٤٦، ٤٧.
(٤) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٥) سورة التحريم، الآية: ١١.

الفصـــل الســادس

الخصائص الإنسانية للدعوة الإسلامية

إن أصول الدين الإسلامي تسوق إلى غاية جلية وهي كونه خاتم الأديان موجهاً للناس كافة وتلك الأصول المصطبغة بالصبغة العالمية ترسي دعائم مجتمع صالح تتوثق فيه العلاقة بين المسلم وخالقه وبينه وبين أخيه الإنسان، كما تصان فيه الكرامة الإنسانية التي شرفها الله بالآدمية وزادها شرفاً ببعث هذا الدين. ومن أبرز الخصائص التي جعلت الإسلام صالحاً لأن يكون ديناً للشريعة على اختلاف أعصارها وأمصارها ما يأتي:

أولاً: تحقيقه لمقاصد خمسة تحقق مصالح الإنسان في مجتمعه بحيث لا يكون هناك تصادم بين رغبة الفرد وغاية الجماعة.

(أ) **حفظ العقل**: فقد صانه الإسلام فحرم الخمر وكل ما يذهب العقل وفرض حداً يزجر به من يجرؤ على إفساد عقله هروباً من الواقع، ويقام هذا الحد في جماعة حتى تعم فائدة الزجر ويحس المجتمع بواجب المحافظة على عقل كل فرد فيه.

(ب) **حفظ النفس**: أما النفس فقد صانها الإسلام صيانة لا نظير لها في التشريعات الأرضية حتى أنه جعل اعتداء الإنسان عليها أشنع الجرائم وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب المؤبد فقال تعالى: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾**[1].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.

وقال ﷺ: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمّه في يده يتحساه في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[1].

وبمثل ذلك توعد الله قاتل أخيه بغير حق مشيراً إلى أن هذا الأصل محفوظ كذلك في الشرائع السابقة.

قال تعالى: بعد قصة ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر في أول جريمة في تاريخ البشرية **﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾**[3] ووضع حد القصاص في القتل والاعتداء على الأطراف كما فرض الديات في القتل الخطأ زيادة في صيانة النفس.

(جـ) العرض: حفاظاً على شرف الإنسان وكرامته اتفق الإسلام مع الشرائع السابقة في الدعوة إلى العفة والطهارة، وأحاط الإنسان بسياج أخلاقي يحصنه من هتك الأعراض فقال تعالى: **﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾**[4] فحد الرجم للمحصن والجلد للبكر كما وضع حد القذف والملاعنة بين الزوجين المتقاذفين فقال تعالى: **﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾**[5] وقال تعالى في تصوير شناعة المغتاب: **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾**[6].

وتوعد الأفاكين بقوله تعالى: **﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب ص ٢١، ص ٢٩١ دار إحياء التراث العربي بيروت.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.
(٥) سورة النور، الآية: ٤.
(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾[٦].

(د) **حفظ الدين**: يقدر الإسلام الحالة النفسية للإنسان في التعلق بالعقيدة التي يعتنقها فحين يخاطبه بأصل العقيدة الإسلامية يحرك فيه النوازع الوجدانية والقدرات العقلية فيرشده بالرجوع إلى الفطرة ويحث على النظر في الدلائل الكونية ثم يترك له بعد ذلك حرية الاختيار بين أن يعتنق عقيدة الإسلام راضياً مطمئناً أو أن ينحرف عنها موكولاً إلى نوازعه وأهوائه فقال تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾[٢].

وخاطب نبيه بقوله: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[٣] ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[٤].

(هـ) **حفظ المال**: نهى الإسلام أتباعه عن انتهاك حرمة الأموال فحرم الربا ووضع حداً للسرقة والحرابة قال تعالى: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾[٥] وقال تعالى: ﴿**وأحل الله البيع وحرم الربا**﴾[٦] وقال أيضاً: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾[٧].

ووجه دلالتها على عموم الرسالة أنها مصونة للإنسان فرداً وجماعة بتحريم كل الوسائل المؤدية إلى تضييع مقصد منها، فمصالح الإنسان قائمة على حفظ هذه المقاصد وشريعة الإسلام تكفل له حفظها بسلطان هو الالتزام الخلقي وبرادع ظاهر وهو الحدود التي يقوم أولو الأمر على تطبيقها.

ثانياً: شمول التشريعات:

لقد جاءت الدعوة الإسلامية مستجيبة لطبائع الناس عامة ولمراحل التطور

(١) سورة النور، الآية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

كافة فلا تفرق بالدعوة بين ذكر وأنثى ولا تضع في تقديرها ميزة للون أو الجنس، ولا لعارض من عوارض الدنيا كالمال والجاه وأرومة النسب، وبذلك يحقق التشريع الإسلامي العدل والإخاء والحرية والمساواة، هذه المبادىء التي نادى بها كثير من المصلحين ولكنهم لم يخرجوها من دائرة النظر والرأي إلى واقع الحياة كما جسمها الإسلام بين معتنقيه فبلال بن رباح عبد الجاهلية يصبح سيداً في الإسلام أميناً على بيت مال رسول الله ﷺ ومؤذناً يوم الفتح وعائشة أم المؤمنين يتعلم على يديها كثير من الصحابة والتابعين، بل يحتكمون إليها وإلى حفصة وأم سلمة في كثير من القضايا التي يعجز بعض أعلام الصحابة عن الفصل فيها.

ثالثاً: رفع الحرج:

إن الدعوة الإسلامية ميسرة حيث إن جميع عبادات الدين سهلة ميسرة لا عناء على المسلم من أدائها فالصلاة مثلاً عبادة فرضها الإسلام على المسلمين ووزعها على أوقات متباعدة تشمل الليل والنهار وجعلها تؤدى في أوقات خمسة لا تستغرق سوى دقائق معدودة، والصوم مثلاً فريضة مقدرة بشهر واحد في السنة يعفى منها المريض والشيخ والمسافر وذوات الأعذار من النساء، والزكاة لا يؤديها إلا من ملك النصاب وبمقدار ليس فيه إجحاف للمتصدق، والحج فرض لمن استطاع إليه سبيلاً كما استثنى بين فرضية الجهاد أولي الضرر ولم يتوعد بالعقاب على الذنوب التي ترتكب بطريقة الخطأ والنسيان أو تحت طائلة الإكراه قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1] واشتهر عند الفقهاء بأن المشقة تجلب التيسير فكلما كان المسلم المطالب بفعل واجب وترك محذور عاجزاً عن الامتثال لأسباب خارجة عن إرادته جاز له الخروج من عجزه ورفع الحرج عن نفسه بالتخفيف من الواجب، ومباشرة المحذور كالمضطر حين يباح له الأكل من الميتة قال تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾[2].

وبلغ التشريع الإسلامي الحد في رفع الحرج عن المسلم إن أجاز له التلفظ

---

(١) سنن ابن ماجه ـ كتاب الطلاق ـ ١٦ ج ١، ص ٦٥٩ ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.
(٢) سورة النحل، الآية: ١١٥.

بكلمة الكفر إذا أكره على ذلك ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: ﴿من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[1].

رابعاً: الإسلام يصرح باتفاقه مع الدعوات السابقة في أصولها، فهو يدعو إلى الإيمان بجميع الرسل السابقين بدعواتهم وهذا جمع للإنسانية في إطار الدعوة الإسلامية حيث تجد الأمم السابقة في هذا الدين تكريماً لرسلهم مما يؤكد لهم عالمية هذا الدين، بل وأجمع الفقهاء الأصوليون على اتباع بعض الأحكام في الشرائع السابقة فقالوا: «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ» وهذا ما عبر عنه مسلم كان قسيساً ثم أسلم عندما قيل له: كيف تخرج من المسيحية؟ وتدخل في الإسلام فقال: «ما خرجت من المسيحية ولكن أدركت أصولها وسرت فيها إلى أقصى مداها، فالإسلام امتداد لكل الأديان السماوية الصحيحة إذ انتهت إليه وبه»[2].

خامساً: ومن العوامل التي تضمن استمرار الإسلام مع العصور وتؤمن بقاء تمكنه في النفوس اتساقه مع الفطرة واستجابته للطبيعة البشرية فهو لا يطفىء الغرائز بل يهذبها، فالزواج تهذيب للغريزة الجنسية وتوجيه لها نحو حفظ النوع الإنساني، وضابط الزكاة حماية لغريزة التملك من الانجذاب إلى البخل والعدوان كما أنه يشجع على استثمار الدوافع النفسية ولا يميتها بل يوازن بينها. فالجهاد دافع للإصلاح ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾[3].

والتعلم طريق إلى الخير والتقوى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[4].

والعمل منضبط بالكسب النافع للفرد والجماعة لا يصادم حاجة الأمة ولا يهضم حق الفرد ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[5].

والأخلاق في الإسلام تتجاوب مع الفطرة الإنسانية المغروسة في تربة البراءة

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) انظر المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة ط ٢، مكتبة الفكر ـ طرابلس ١٩٧٠ م.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

والطهر، فالصدق هو الصدق لا يخضع لمقياس النفعية كما هو الحال في الأخلاق الغربية، فالمسلم مطالب بالتزام الفطرة في التمسك بالصدق فلا يكذب على نفسه ولا يخدع الآخرين وإن كان في ذلك تضييع لمنفعته الشخصية والكذب ممنوع في شريعة هذا الدين وإن جرّ نفعاً لصاحبه، وقس على ذلك بقية الفضائل والرذائل ولقد صرح القرآن الكريم والحديث الشريف بملاءمة الإسلام للفطرة البشرية فقال تعالى: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة**﴾[2].

وقال ﷺ: «يولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[3].

وغضب ﷺ غضباً شديداً عندما سمع بأن نفراً من الصحابة اعتزموا اعتزال الناس والمداومة على الصيام والاستمرار في قيام الليل، ولم يكتف بزجرهم بل وقف خطيباً في المسجد يعلن أن لا رهبانية في الإسلام فقال منكراً عليهم وعلى من يحذو حذوهم مخالفتهم لمبدأ الفطرة:

«ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[4]. ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «إنه لما أراد الله جعله ديناً عاماً لسائر البشر دائماً إلى انقضاء هذا العالم جعله مساوقاً للفطرة المقررة في نفوس سائر البشر لتكون الجامعة العامة للبشر مشتقة من الوصف العظيم المشترك بينهم وهو وصف الفطرة، لأن شعوب البشر وهم مختلفون في الأخلاق والعوائد والمشارب والتعاليم لا يمكن جمعهم جمعاً عملياً غير وهمي في جامعة واحدة ما لم يكن عمودها وقاعدتها

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ ج ٢، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٤) عمدة القارىء شرح صحيح البخاري ـ العيني ج ٢٠، ص ٦٥ كتاب النكاح ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

مرتكزاً في سائر النفوس»[1].

سادساً: والإسلام يعد التفكير العقلي من واجبات المسلم ولذلك صرف نظره إلى التفكير في الآيات الكونية ودعاه إلى التأمل في الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾[2] ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾[3] ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾[4].

﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[5].

وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾[6] ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[7]. وتاريخ العلم والعلماء شاهد ناصع على تشريف الإسلام للفكر الإنساني في ميادينه المختلفة، فلولا القرآن ودعوته إلى البحث والتفكير لما زخرت العلوم الإسلامية بكنوزها المتنوعة في علوم اللسان (البلاغة والنحو والأدب)، وعلوم العقل (المنطق والفلسفة والطبيعة وغيرها) والإسلام لا يعطل العقل ولا يغيّبه عن فهم العقائد والشرائع بل يجعله متضافراً مع الوحي في إطلاع الإنسان على الحق والهدى على خلاف ما يدعو إليه المحرّفون للديانتين اليهودية والنصرانية من حجر على العقل وتفريق بينه وبين تعاليمهم الكنسية والتلمودية، والكنيسة تضطهد العلماء بمجرد محاولة نشرهم لنظريات علمية بحتة لا علاقة لها باللاهوت.

يقول الأستاذ محمد الغزالي: (في المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين أغمض عينيك واتبعني ولا تسلني عن شيء يستثيرك، وربما تكون السلامة في

---

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور ص ٢٠.
(٢) سورة ق، الآية: ٦.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٦) سورة صٓ، الآية: ٢٩.
(٧) سورة النساء، الآية: ٨٢.

طاعته فأنت تمشي وراءه حتى تبلغ مأمنك فلو هلك هلكت معه، أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير وحذرك مواطن الخطر وشرح لك في إفاضة ما يطوي لك المراحل ويهون عليك المتاعب وسار معك قليلاً ليدربك على العمل بما علمت فأنت في هذه الحال رائد نفسك، والله عز وجل عندما بعث محمداً ﷺ لهداية العالم ضمن رسالته الأصول التي تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون»[1].

وعلى ذلك اكتملت للإسلام صفة العالمية حيث كانت الأديان المتقدمة عليه تمهيداً له وتدرجاً إلى قمته.

* * *

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٢٠، ٢١ ط ٦ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٥ م.

الباب الثاني

الدَّعْوَةُ وَالدُّعَاةُ

الفصـــل الأول

تعريـــف الدعـــوة

بنظرة للمعاجم اللغوية والنصوص الأدبية نلمح أن كلمة الدعوة ترجع في أصل استعمالها اللغوي إلى عدة معان منها:

دعاه: ساقه، ودعا الرجل دعواً ودعاء: ناداه والاسم الدعوة[1]، ودعاه الله بمكروه: أنزله به ـ وتداعى العدو: أقبل، وتداعت الحيطان تساقطت، ودواعي الدهر: صروفه، والداعية: صريخ الخيل في الحروب، وداعية اللبن: بقيته التي تدعو سائره[2].

وقوله: «له دعوة الحق» قال الزجاج(*): جاء في التفسير أنها شهادة أن لا إله إلا الله، وفي كتابه ﷺ إلى هرقل أدعوك بداعية الإسلام، أي بدعوته وهي كلمة الشهادة التي يدعى إليها أهل الملل الكافرة.

وقوله تعالى: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ معناه داعياً إلى توحيد الله وما يقرب منه فالنبي داع إلى الله تعالى، ومما يطلق عليه وصف الداعية: المؤذن، والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة واحدهم داع ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى

---

(١) ترتيب القاموس المحيط باب: دعا ج ٢ ص ١٨٧، ١٨٨ ط ٣ الدار العربية للكتاب.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ـ باب دعا ج ١٤، ص ٢٥٨ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٥٦.

(*) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج عالم بالنحو واللغة من كتبه معاني القرآن ـ وإعراب القرآن توفي سنة ٣١١ هـ.

دين أو بدعة أدخلت فيه الهاء للمبالغة، قال تعالى مخبراً عن الجن الذين استمعوا القرآن ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾[1].

ولا تستعمل الدعوة إلا فيما فيه فائدة مهمة للمدعو أو أمر يصرفه عن ضرر، ويظهر ذلك في قول طرفة بن العبد[2] من معلقته الشهيرة:

وإن أدع للجـلى أكن من حماتهـا وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد[3]

وكثيراً ما قرنت الدعوة بالجلى في شعر الحماسة لتدل على طلب الإقبال للأمر المهم كالبيت السابق وكقول المرقّش:[4]

وإن دعـوتِ إلى جـلى ومكـرمـة يوماً سراة كـرام الناس فـادعينا

ومن خلال استعراض الأصول الاشتقاقية لكلمة الدعوة وتطور استعمالها اللغوي نرى أنها استقرت في العرف اللغوي منذ نزول القرآن على دلالة طلب الإقبال على المنادي.

التعريف الاصطلاحي للدعوة:

إن الدعوة بمعنى الدين إذا أطلقت لا يراد منها إلا الإسلام.

وعرف ابن تيمية(*) الدعوة بقوله: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٢) طرفة بن العبد: شاعر من بكر بن وائل من أصحاب المعلقات كان في حسب كريم وكان جريئاً على الشعر من أشعاره معلقته الشهيرة التي منها هذا البيت.

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٦٧ دار الاتحاد العربي ـ القاهرة ١٩٦٧ م.

(٤) المرقّش الأكبر: بكسر القاف وتشديدها هو عمرو بن سعد أحد فرسان بكر وشعرائها شهد حروبها مع تغلب وعرف بالشجاعة.

(*) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي العلامة الفقيه المجتهد، من ألمع كتبه: السياسة الشرعية، والرد على طوائف الشيعة ـ توفي سنة ٧٢٨ هـ.

والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه»[1].

وهذا التعريف مفرط في الإطالة مفصل للجزئيات فكان يكفيه أن يقتصر على ما ورد في صدر التعريف من قوله: «الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا».

وهو من جهة أخرى غير جامع لأنه لم يشر إلى المخاطبين بالدعوة ولا إلى أسلوب وأدوات الدعوة حيث اكتفى بذكر مقصد الدعوة.

ومن المحدثين عرفها الدكتور/ أحمد غلوش حيث قال: «هي العلم الذي تعرف به المحاولات الفنية الهادفة إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق»[2].

فهو يرى أن الدعوة علم كسائر العلوم له قواعده ومنهجه ويقتضي التركيز على تعليم الدعاة والمحاولات التي يجب أن يبذلوها للدعوة سواء كانت قولية أو فعلية، ويقصد بكلمة الفنية أنها تراعي الجوانب النفسية في المشاهد والمستمع وقيدها بالمتعددة لأن من هذه المحاولات ما يتجه إلى العقل والجدل المنطقي، ومنها ما يتجه إلى إثارة الوجدان كالحديث عن اليوم الآخر مثلاً.

ويواجه هذا التعريف اعتراضاً مفاده أنه مطول غير مانع وكان يكفيه أن يقول تعاليم الإسلام بدل قوله «عقيدة وشريعة وأخلاق»، ولا تعد الدعوة علماً مدوناً بالمعنى الاصطلاحي كما قال صاحب التعريف لأنها لا تعالج قضايا بطريق التصور والتصديق، بل يقوم الداعية بإعداد نفسه لنشر ما يدعو إليه ويستلزم ذلك الإلمام بمعلومات جزئية لا يكون التأليف بينها مدخلاً إياها في المعنى الاصطلاحي للعلم فهي ليست نوعاً من أنواع العلوم التي اصطلح عليها الناس كالنحو في العلوم اللسانية والكيمياء في العلوم الطبيعية، فالداعية يستعين بالعلوم ولكن لا

---

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ج ١٥، ص ١٥٨ ـ مطابع الرياض.

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص ١٠ ـ دار الكتاب المصري ـ القاهرة ١٩٨٧ م.

تعد دعوته علماً من تلك العلوم في أسلوبها وقد تحوي علوماً في جزئياتها.

وعرفها صاحب كتاب خصائص الدعوة الإسلامية بأنها «تبليغ الناس جميعاً دعوة الإسلام وهدايتهم إليها قولاً وعملاً في كل زمان ومكان بأساليب ووسائل خاصة تتناسب مع المدعوين على مختلف أصنافهم وعصورهم»(١).

وهذا التعريف أقرب إلى القبول بما تضمنه من ذكر لمقاصد الدعوة وذكر للداعية وأسلوب الدعوة ووسائلها غير أنه يؤخذ عليه بعض الحشو كما في قوله: «في كل زمان ومكان» حيث إن قوله الناس جميعاً في صدر التعريف فيه كفاية وفي قوله: «هدايتهم إليها» تكرار لقوله تبليغ الناس فالتبليغ متضمن لمعنى الهدى.

ويمكن من خلال التعريفات السابقة أن نخلص إلى تعريف للدعوة يقول: «عرض الداعية خصائص الإسلام على الناس بدراية تامة في أسلوب يناسب حال المدعوين».

وهذا التعريف مستقى من المعاني التي وردت في قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ ومن وصيته ﷺ لعلي ومعاذ عندما أرسلهما إلى اليمن بقوله: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»(٢).

وتتضمن التعريفات السابقة جميعاً تعريف الداعية من خلال تعرضها لتعريف الدعوة حيث إنه القائم بعبئها وهادي الناس إليها ولما قد يعلق بأذهان بعض الناس من التباس بين معنى الداعية وبين الواعظ والمحتسب يجدر أن نبين الفرق بينهم، فبينما يجتمعون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفترقون في أن كلاً منهم يستقل بإرشاد طائفة مخصوصة من الناس.

* * *

(١) خصائص الدعوة الإسلامية، محمد أمين حسن، ص ١٧، ط ١ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ١٩٨٣ م.
(٢) عمدة القارىء، شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني ج ١٨ ص ٣.

الفصـــل الثاني

الفرق بين الداعية والواعظ

يقتصر دور الواعظ على الإرشاد إلى أحكام الدين العملية وقد يذكـر بالأصول العقدية أما الداعية فتنص دعوته على الأصول لأنه يخاطب قوماً لم يعتنقوا الإسلام مؤملاً دخولهم في هذا الدين موضحاً لهم بعد ذلك الضروري من الأحكام تاركاً للواعظ استكمال البيان لما يحتاج إليه المخاطبون بالدعوة بعد أن دخلوا فيها.

فداعي المطمئن بالإيمان يكفيه أن يتلو القرآن أو أن يستشهد بأحاديث نبوية أو بنصوص من يقتدي باجتهادهم وهو يقوم بهذه المهمة فيلقي دروسه وينصرف إلى حاله، أما الداعي للإيمان فهو يقصد نقل النفوس من مرحلة إلى أخرى وتحويلها من عقيدة إلى عقيدة وذلك الأمر يحتاج فيه إلى قدرة فائقة على الإقناع وصبر وحسن محاولة حتى يبلغ الحجة ويطارد الشبهة، ولذا يروي لنا القرآن كيف أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يجعل له أخاه هارون شريكاً في الرسالة يعينه على فرعون وصلفه قال تعالى: ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري**﴾[1].

وبعث عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية برجلين ليدعواهم إلى الإيمان فقابلوهما بعناد وتكذيب فعززهما بثالث يؤيد بعثتهما قال تعالى: ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا**

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢.

بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾[1]. وقد يجتمع وصف الداعية والواعظ في شخص واحد فيكون الداعية واعظاً ولكن دوره كواعظ يأتي بعد مرحلة الدعوة كما هو الشأن في دعاة الصحابة كمصعب بن عمير في المدينة قبل الهجرة وعلي ومعاذ في اليمن بعد الهجرة.

الفرق بين الداعية والمحتسب:

يجتمع الاثنان في أن كلاً منهما يأمر بالمعروف إذا ظهر تركه وينهى عن المنكر إذا ظهر فعله[2] ويختلف المحتسب عن الداعية في أن المحتسب منفذ لأمر الولاية حيث يقوم بزجر المقصرين في امتثال الأحكام العامة المطبقة في المجتمع المسلم، أما الداعية فهو منطلق في دعوته إلى جميع الناس كي يدخلوا في دين الإسلام غير خاضع لأوامر الولاية بل قد تظله دار الكفار من أجل هداية أهلها.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) الأحكام السلطانية، محمد بن حسين الفراء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣ م.

الفصـــل الثالـث

الداعية الأول/ محمد (صلى الله عليه وسلم)

إيمانـــه بدعوتـــه:

بعد أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ وأمر بتبليغ الدعوة قام بهذا الأمر خير قيام ولكن الدعوة اقتصرت في مرحلتها الأولى على الجانب العقائدي، وقد رأى النبي أن تكون دعوته بالتدريج لأن المعتقدات العامة تمثل أكبر دور في حياة الأمة وتاريخ المجتمعات يؤكد أن العقائد لا تتزعزع ولا تتحلل إلا ببطء وهذا هو سر دفاع قريش المستميت عن معتقداتها في بداية الأمر.

ولقد كان هناك من يقول بأن الدعوة استمرت سراً ثلاث سنوات حتى أسلم حمزة، وكان الرسول ﷺ يتخذ من دار الأرقم مقراً له خلال هذه الفترة لتعليم المسلمين القرآن وتعاليم الإسلام، إلا أنني لا أرى رأي بعض الباحثين[1] بسرية الدعوة، وأن الآيات القرآنية مبكرة النزول كسورة المدثر وسورة المزمل التي تبين أن المشركين طلبوا من الرسول الملاينة تارة ووصفوه بالجنون تارة أخرى، كل هذه دلائل على جهر النبي بالدعوة منذ يومها الأول، إلا أن النبي ﷺ قد اقتصر في دعوته مؤقتاً على من كان يتوسم الخير فيهم ولا يرى فيهم غلظة تصدهم عن قبول الدعوة وأما عدم صلاته على ملإٍ من الناس وفي فناء الكعبة فكان ذلك محافظة

---

(١) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الحلبي ج ١ ص ٤٥٦ ـ مكتبة مصطفى البابي مصر ـ ط ١، ١٩٦٤ م.

منه على أصحابه الضعفاء حتى لا تنكل بهم قريش، وأن تخفّيه ـ عليه السلام ـ وأصحابه في صلاتهم وقراءتهم للقرآن خفف من تعذيبهم من قبل قريش حيث اكتفت في بداية الأمر بالسخرية منه والاستهزاء بأصحابه وهناك من يعضد هذا الرأي[1] القائل بأن الدعوة لم تكن سراً أبداً وإنما كان السر هو أداء العبادات. ونشير إلى ما أورده الشيخ محمد أبو زهرة حين قال: «يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس استخفاء بالدعوة فقد كان النبي ﷺ يعلن ما جاءه من نذير وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي يستخفي به هو إقامته للعبادة»[2].

المقصود أن رسول الله استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً لا يصرفه عن ذلك صارف، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم وفي المواسم ومواقيت الحج يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وفقير وغني، جميع الخلق في ذلك شرع سواء[3]. روى الإمام أحمد عن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال: رأيت رسول الله في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إلّه إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه[4].

وقد صور القرآن الكريم شدة تمسك النبي بدعوته وإيمانه بها من ذلك ما رواه ابن هشام أن زعماء قريش جاؤوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا فإما أن تكفّه عنا أو تخلي بينا وبينه فردّهم أبو طالب رداً جميلاً ووعدهم بمخاطبة الرسول في هذا الأمر ثم بعث إليه: أن أبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله ﷺ أن عمه سيخذله ويسلمه فقال: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[5].

---

(١) ممن قال بأن الدعوة بدأت جهراً ـ محمد عزة دروزة في كتابه ـ تاريخ العرب في الإسلام تحت راية النبي ﷺ انظر ص ٦٣ وما بعدها.

(٢) خاتم النبيين، محمد أبو زهرة ج ١، ص ٣٨٨.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ج ٣، ص ٤٠، دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨ م.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣، ص ٤٩٢.

(٥) السيرة النبوية ـ ابن هشام المجلد الأول ج ١، ٢، ص ٢٦٦.

وتظهر شدة تمسك النبي ﷺ بدعوته وثقته بنصر الله في حواره مع الصدّيق وهما بالغار يطمئنه وقد أحاط الكفار بهما وأبو بكر يقول: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا قال تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[1].

والمتتبع لسور القرآن الكريم يلاحظ أن في السور المكية آيات كثيرة فيها تثبيت للنبي وتسلية له وأمر بالصبر والصفح والانتظار وتنبيه إلى أنه ليس جباراً ولا مسيطراً وليس مطلوباً منه هدايتهم وما عليه إلا التبشير والإنذار وتلاوة القرآن وتبيان ما انطوى عليه من مبادىء وهدى ورحمة للعالمين، ونحن نجزم أن ذلك لا يعني كون النبي ﷺ مضطرب النفس جزوعاً أو لأنه حائر قلق فقد احتوى القرآن الكريم من الآيات وتضمنت كتب الحديث من الروايات ما فيه أقوى البراهين على ما كان عليه النبي ﷺ من عمق الإيمان وقوة الجنان والثبات أمام الخطوب والكفاءة التامة في تأدية رسالته، وكل ما في الأمر أن المسلمين في العهد المكي كانوا قلة مستضعفة وكان هذا الأمر يحزنه شديد الحزن لحرصه على هداية قومه وانتشار دعوته لذلك اقتضت الحكمة الإلهية تثبيته بموالاة تلك الآيات لتبث فيه القوة والصبر لمجابهة الأكثرية الساحقة من العرب وهم يواجهون الدعوة بالجحود قال تعالى: ﴿**ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[2].

آيـات البـلاغ:

أرسل الله رسوله هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وقلده مهمة البلاغ والبيان كما هي مهمة كل رسول من قبل، فهو مأمور بإيصال الوحي إلى الناس ثم توضيح ما فيه من عقائد وأحكام حتى لا يذهب فيه المصدقون والمتبعون بأودية آرائهم وشعاب أهوائهم، فمهمة الرسول شاقة لأنها تجمع بين اطلاع الناس على ما يوحى إليه ثم تتبعهم بتمكين تعاليم الوحي من

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الحجر، الآيات: ٩٧، ٩٨، ٩٩.

نفوسهم وعقولهم. وقد صحب النبي ﷺ هذا الواجب من مشرق بعثته إلى قبيل وفاته لا يتخلى عنه لحظة ولا يغفل عن أصحابه الذين شرفه الله بهدايتهم وهداية من بعدهم من أجل ذلك خاطبه الله في المراحل الأولى من البعثة باعثاً فيه عزيمة الرشد فقال تعالى: ﴿**يا أيها المدّثّر، قم فأنذر**﴾[1] في هذا الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله وعبر عنه بصفته ولم يقل يا محمد ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها[2]. ولا شك في أن النبي ﷺ وقر في قلبه أثر هذا الأسلوب اللطيف فكان يترجمه في سلوكه مع المخاطبين بالدعوة فيستأنسهم بألقابهم وأوصافهم التي تعبر عن حالاتهم عند المخاطبة مما يقربهم إلى الدعوة ويقرب الدعوة منهم كقوله لعتبة بن ربيعة حين يجادله في أمر الإسلام: «يا أبا الوليد» وكقوله لقيصر ملك الروم وكسرى ملك فارس حين أرسل إليهما بالكتب، فوصف قيصر بعظيم الروم وكسرى بعظيم فارس يقول تعالى: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾[3]. عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زملوني زملوني فأنزل ﴿**يا أيها المدثر**﴾ ثم حمي الوحي وتتابع[4] قال تعالى: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾[5] أي فاجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً أو فرق بين الحق والباطل وأصله الإبانة والتمييز ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم[6]. وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ١، ٢.

(٢) تفسير آيات الأحكام، القرطبي ج ١٩، ص ٦١ ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت ط ٢، ١٩٥٢ م.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ج ٢، ص ٦٠٢.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٦) تفسير أبو السعود ج ٥، ص ٩٢، دار المصحف ـ القاهرة.

أنزل عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال: «يا معشر قريش اشتروا لأنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغة فقد فاصل الرسول قومه على دعوته وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله[2] قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾[3].

قيل معناه أظهر التبليغ ودلت الآية على رد قول من قال إن النبي ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقية وهم الرافضة ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد شيئاً من أمر الدين لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك ظاهراً ولولا هذا لما كان في قوله عز وجل: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ فائدة. قال ابن عباس: المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمت شيئاً منه فما بلغت رسالته وهذا تأديب للنبي وتأديب لحملة العلم من أمته ألاّ يكتموا شيئاً من أمر شريعته[4].

وقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[5] توجه الخطاب في صدر هذه الآية إلى النبي ﷺ بأن يدعو إلى سبيل الله، وأسلوبه في دعوته يجب أن يتحلى بالحكمة فلا شطط ولا صخب ولا تمويه ولا تدليس للحقيقة وعليه أن يقدم النصيحة لمن تنكب سبيل الله ولكن في رفق حتى تستأنس به النفوس وتقبل عليه، ثم أمره بألا يكتفي بالدعوة المجردة عن

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج ٣، ص ٨١.
(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي ص ١٠١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ج ٦، ص ٢٤٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

الاستدلال بالبراهين ودفع حجج المعارضين فقال وجادلهم أي المخاطبين الذين يعترضون طريق الدعوة بما يلقون من شبهات، وفي بسطه لأدلة دعوته وأحقيتها في الاتباع يجب أن يكون لدينا كما أمر بذلك في إلقائه لموعظته وإسدائه النصح لمن يستمعون إليه فالحكمة والنصيحة والجدال الحسن دعائم ثلاث كشفت عنها هذه الآية وأمر النبي ﷺ ببناء دعوته على أساسها وحذف مفعول ادع لقصد التعميم أو لأن الفعل نزل منزلة اللازم لأن المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين لأنه أمر معلوم من حال الدعوة[1].

وسبب نزول هذه الآية يشعر أن نفس النبي كانت متبرمة من جرائم قتلة عمه حمزة الذي كان سيفاً من سيوف الإسلام كسره المشركون في غزوة أحد، فأرشدته هذه الآية إلى التصبر والتضحية بتلك المشاعر في سبيل الدعوة ونتيجة لما لقيه رسول الله ﷺ من المشركين من أذى كان أقساه التمثيل بعمه حمزة بن عبد المطلب الأمر الذي قد يبعثه على الغلظة عليهم في المجادلة، أمره الله تعالى أن يجادلهم بالتي هي أحسن وقيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد الحكمة منه بمثل ذلك لأن الموعظة لّما كان المقصود منها ردع نفس الموعوظ عن أعماله المشينة كان مظنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ أرشد الله رسوله ﷺ أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة، أما الحكمة فهي تعليم لمتطلبي الكمال من معلم يهتم بتعليم طلابه فلا تكون إلا في حالة حسنة فلا حاجة إلى وصفها بالحسن[2].

وأخطأ من العلماء من قال بأن هذه الآية ونظائرها منسوخة بآية السيف أي التي تأمر بالقتال لأن هذه الآية وما في معناها بيان لأسلوب الدعوة، وآيات القتال أمر لمقاومة المتصدين للدعوة فليس الحكم المأمور به واحداً حتى يتغير.

صبره في سبيل الدعوة:

لقد تابع النبي الكريم ﷺ نشر دعوته إلى جميع الناس بما آتاه الله من رحابة

(١) التحرير والتنوير ج ١٤، ص ٣٢٧.
(٢) التحرير والتنوير ج ١٤، ص ٣٢.

صدر وحسن خلق وحلاوة لسان ورقة حاشية حتى أنه لم يعرف عنه في معاملاته قسوة أو غلظة[1] وكان كما وصفه الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2].

ومن الأشخاص الذين وقفوا من الدعوة موقف المناوأة الشديدة منذ بدايتها أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه كنية قرآنية استحقها لشدة نكايته بالرسول، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب وكان موقفه من أشد المواقف على نفس النبي ﷺ فهو عمه من جهة ولأن تأثيره في سير الدعوة وعرقلتها أقوى من غيره فبمعارضته للدعوة تقوى حجة الغير إذا وقفوا في وجهها وانصرفوا عنها، ولقد كانت زوجه وراءه في هذا الموقف الشنيع فاستحقت ما ورد في شأنها من إنذار قاصم. ذكر ابن هشام[3] روى ابن جبير عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ خرج النبي ﷺ حتى أتى الصفا فصعد الجبل ونادى: «يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[4].

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[5] وفي سب القرآن يدي أبي لهب دلالة على أنه كان يؤذيه بيديه هاتين، روي عن طارق المحاربي أنه قال بينما أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا برجل خلفه يرميه وقد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا محمد يزعم أنه نبي وهذا عمه أبو لهب[6]. فمعاداة عمه له من أدلة نبوته ﷺ ومن سماته إيمانه بدعوته فهو يطرح القرابة ويضحي بها من أجل العقيدة، ولئن كان بعض الكفار يزداد في عداوته له عندما يرى عمه يلاحقه

(١) موقف الإسلام من الوثنية، حسن خالد ص ٤٢٧ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ط ١، ١٩٨٦ م.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام المجلد الأول ج ١، ٢، ص ٣٥١.
(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ج ٣، ص ٨٣.
(٥) سورة المسد، الآية: ١.
(٦) التحرير والتنوير ج ٣٠، ص ٦٠١.

بالأذى فلا شك أن كثيراً من عقلاء الناس سيقف متسائلاً كيف يتحمل ذلك الرجل خصومة أقاربه لو لم يكن مؤمناً بدعوة الحق.

ويروي البخاري بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنق النبي فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر الصديق حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول[1] وقال: ﴿**أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾[2].

وعن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط فأخذه فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه[3].

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف عله يجد آذاناً صاغية أو قلوباً واعية بعد أن أعيته الوسيلة في إقناع مشركي قريش ومعانديها فعرض له في الطريق جبريل عليه السلام فناداه فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[4] لفعلت فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده ولا يشرك به شيئاً»[5].

وهكذا أقام النبي ﷺ بمكة منذ البعثة ولقي من الجهد والعنت ما لقي وصبر على المشقة كثيراً وتأسى به أصحابه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لقد صدع بما أمره الله أن يصدع به وأدى مهمته كأحسن ما يكون فلم يقصر يوماً ولم تفتر عزيمته ولم

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية ـ عبد العزيز جاويش ص ٣٠، دار الهلال القاهرة.
(٢) هذا تضمين من أبي بكر للآية الواردة في سورة غافر لتشابه الموقفين، الآية ٢٨.
(٣) صحيح مسلم كتاب الجهاد ج ١٢، ص ١٥١.
(٤) هما جبلا مكة أبو قبيس وقعيقعان الذي يقابله.
(٥) صحيح مسلم كتاب الجهاد ج ١٢ ص ١٥٥.

يتطرق اليأس إلى قلبه فصبر على أذاهم وتحمل قساوة قلوبهم ولم يعرف عنه يوماً أنه أطلق لسانه يستمطر عليهم غضب الله ولعنته كما فعل أسلافه من الأنبياء كنوح ـ عليه السلام ـ حين قال: ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا**﴾[1].

وفي معركة بدر حيث أحرز المسلمون النصر لأول مرة في تاريخهم المجيد تسنح الفرصة للنبي لينتقم من المشركين بقتل أسراهم بل والتنكيل بهم والتشفي منهم انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين ولكنه يؤثر أن يقبل مفاداتهم ويرفض ضرب أعناقهم، وقد نزل القرآن الكريم يعاتبه على هذا الموقف ﴿**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾[2].

ويوم فتح مكة المشهود وقف فيهم يخاطبهم وقد أمكنه الله من رقابهم ما تظنون أني فاعل بكم قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[3].

ويقول الشيخ محمد عبده: قام الرسول ﷺ بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة له كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا والآخرة، أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعز السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر[4].

أما في المدينة المنورة فقد عانى الرسول ﷺ والمسلمون من النفاق والمنافقين لأن النفاق ليس كفراً صريحاً يلازمه الحذر والنصح ولا إيماناً خالصاً تعايشه الثقة

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٣) السيرة النبوية ـ ابن هشام المجلد الثاني ج ٣، ٤ ص ٤١٢.

(٤) رسالة التوحيد، الشيخ محمد عبده ص ١١٢ ـ محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة ١٩٦٥ م.

والأمل، بل إن المنافقين مذبذبون متلونون مخادعون في قولهم ومظهرهم وهم أعداء الإسلام لأن العدو الخفي أخطر من العدو الجلي فقد حاولوا خداع المسلمين فكانوا يتظاهرون بالإسلام وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنما نحن مستهزئون ووصل بهم الأمر إلى حد أن بنوا مسجداً ضراراً ليتخذوه مقراً لهم يدبرون فيه مكائدهم ضد النبي والمسلمين، ولقد رموا النبي ﷺ بصفات سيئة وما قالوه إنه سماع لكل ما ينقل له مصدق لكل ما يسمع وفضحهم القرآن في غير آية قال تعالى: ﴿**ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن**﴾[1] فرد عليهم القرآن: ﴿**قل أذن خير لكم**﴾ أي هو أذن في الحق والخير وفيما يجب سماعه وقبوله وقال تعالى في شأنهم: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون**﴾[2] وقال أيضاً: ﴿**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون**﴾[3].

وقد أنحى الله عليهم باللائمة لتصرفاتهم هذه وحذرهم من أن مصيرهم هو الدرك الأسفل من النار وأفرد في القرآن الكريم سورة كاملة سميت باسمهم وهي سورة «المنافقون».

أما اليهود فكان موقفهم من الدعوة موقف المعاداة منذ الوهلة الأولى وقد دسوا الدسائس وكادوا المكائد ضد النبي والمسلمين، وكانوا يتحالفون مع كفار قريش كلما سنحت لهم الفرصة قال تعالى في شأنهم ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾[4].

أسلوبه في محاجة الخصوم:

إن أسلوب كل محتج برأي أو عقيدة يتشكل حسب شخصيته ويصطبغ بتعاليمه التي ينادي بها فمن كان حليماً رحيماً شديد العزم كما هو حال الأنبياء كان

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦١.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

أسلوبه نابعاً من هذه الصفات ليناً لا يصادم الخصوم بل يتدرج معهم وقد يجاريهم في فرضية ما حتى تنقلب حجة عليهم بعد أن كانت عذراً لهم، فهو ليس خصماً لجوجاً مكابراً يريد أن يقهر من يواجهه في ميدان المحاجة ولو تظاهر عليه بالباطل، وإنما حجته دائماً تلمح بضياء الحق ومحمد ﷺ يمثل ذلك أصدق تمثيل فهو إن جادل جادل بالحق لا لأجل المغالبة وإن صمت عن الكلام فإن صمته لا يكون عن تسليم لباطل يفرض عليه من الخصوم وإنما احتراس من الوقوع في الجدال الذي لا يكون غرضه إظهار الحق ولقد راودته قريش بالدنيا كلها فآثر الحق وحده ولذلك صرعهم بقوة الحجة كما صرعهم بقوة السيف لأن لسانه ينطق بالصدق وسيفه يقاتل بالإيمان.

أرادت قريش أن تخاصمه بالحجة فبعثت إليه عتبة بن ربيعة وكان سيداً في قومه فقال: يا محمد إنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمعهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أموراً لعلك تقبل بعضاً منها فقال له رسول الله: قل يا أبا الوليد قال: إن أردت بالذي فعلت مالاً جمعناه لك أو شرفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك وإن كان ما يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه قال: أفرغت يا أبا الوليد قال: نعم فأسمعه رسول الله ﷺ آيات من سورة السجدة وسجد[1] فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذي ذهب به فسأله قومه ما وراءك قال: سمعت قولاً ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة (أطيعوني يا معشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فغضبت قريش وقالوا: لقد سحرك يا أبا الوليد[2].

وهكذا يتضح جلياً القدرة العظيمة لصاحب الرسالة في إقناع المكابرين من الكفار ويظهر ما للقرآن من أثر في نفوس هؤلاء حتى ولو غالبوا أنفسهم ورفضوا الإذعان لأوامره.

---

(١) انتشار الإسلام، محمد كمال حسين ص ١١ ط ١ دار الفكر العربي - ١٩٧٦.

(٢) حماة الإسلام مصطفى نجيب ص ١٨، دار الكتاب العربي - بيروت.

ومن أسلوبه ﷺ أنه يحول حجة المدعى عليه بعد أن كانت له فيصدمه بدعواه ويكسر شوكته بسلاحه فيكون ذلك أبلغ في التأثير وأقوى في الإقناع روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾. قال عبد الله بن الزبعرى(*): لأخصمن محمداً فجاءه فقال: يا محمد قد عُبد عيسى والملائكة فهل هم حصب جهنم قال النبي ﷺ: اقرأ ما بعدها ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[1].

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ يستعينه في شيء فأعطاه ثم قال: أحسنت إليك قال لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار عليهم أن كفوا ثم قام فدخل بيته ثم أرسل إلى الأعرابي فدعاه فزاده شيئاً حتى رضي فقال: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك وقلت ما قلت وفي أنفس المسلمين شيء من ذلك قم إن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال نعم، فلما كان الغداة جاء فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم هذا كان جائعاً فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وإنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضي أكذاك؟ قال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال النبي: «إنما مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نشوزاً فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها، فتوجه لها بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض فجاءت فاستناخت فشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حين قال هذا الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»[2].

فالنبي ﷺ لا يقتصر على حجة اللسان في إرشاده الناس إلى دعوته، بل

(*) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدي القرشي هرب بعد فتح مكة إلى نجران ثم عاد مسلماً فقبل النبي إسلامه وأمنه فكانت وفاته في خلافة عمر سنة ١٥ هـ ـ تاريخ الأدب العربي ـ د. عمر فروخ ج ١، ص ٢٦٨.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سيدنا محمد رسول الله، عبد الله سراج الدين ص ١٦٨، ١٦٩ ـ جمعية التعليم الشرعي ـ حلب ـ سوريا ط ٢ ـ ١٩٧٨ م.

يسلك مع المدعوين مسالك تربوية يأخذهم فيها باللين أحياناً وبالسخاء أحياناً أخرى، فيلامس قلوبهم مشاعر تتحرك بتلك اللمسات الإنسانية التي يبثها من قلبه الرحيم فتستجيب إلى دعوته طائفة ثم تستجيب عقولهم بعد ذلك، فهو لا يجادل العقل وحده بل يحرك الوجدان أيضاً.

البيعات والمعاهدات:

على الرغم من العنت الذي لقيه الرسول ﷺ من قريش فإنه لم يخلد يوماً إلى الراحة، إذ إنه مكلف بتبليغ الدعوة فصار يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم ويمشي إلى سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى عبادة الله ويطلب منهم متابعته ونصرته، وممن عرض عليهم نفسه جماعة من قبيلة كندة ومن بني كلب وبني حنيفة وبني عامر وبني الأشهل وغيرهم كثير. وفي الموسم السابق للهجرة بعامين عرض نفسه على نفر من الخزرج من أهل يثرب وكانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبياً سيبعث من العرب، فلما سمعوا كلامه وآيات القرآن قالوا: إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فقبلوا دعوته وصدقوه فلما قدموا إلى المدينة ذكروا لقومهم ما كان ودعوهم إلى الإسلام فأخذوا يستجيبون بيسر وسهولة، فلما كان الموسم التالي جاء وفد من المدينة مؤلف من اثني عشر رجلاً من الأوس والخزرج فالتقوا النبي بمكان عرف بالعقبة وبايعوه على الإيمان ثم تواعدوا العام المقبل، ويعتبر هذا أول عقد سياسي ديني عقد في الإسلام وأول نصر سجلته الدعوة الإسلامية لتدخل به عهداً جديداً. وبعث الرسول ﷺ مصعب بن عمير(*) ليقرئهم القرآن ويعلمهم تعاليم الإسلام، وقد أعقب هذه البيعة التي تسمى ببيعة العقبة الصغرى بيعة أخرى في العام الذي يليه عرفت ببيعة العقبة الكبرى حيث خرج وفد كبير من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج فالتقى بهم النبي في العقبة فقالوا له: تكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت، فقال رسول الله ﷺ: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم

(*) أول سفير بعثه الرسول إلى المدينة قبل الهجرة، شهد بدراً وأحداً واستشهد فيها وهو يحمل اللواء ـ أعلام الصحابة ص ١١.

وأبنائكم فقالوا: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[1] فكان ذلك العقد الإسلامي الثاني الذي وطـد الأول على قياس أوسع، ثم أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة قائلاً لهم: إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها، فأخذوا يخرجون أرسالاً حيثما أمكنهم ذلك تاركين أهلهم وأموالهم. ثم هاجر رسول الله وصاحبه فلقيا من المشقة في ذلك ما لقيا، وقد فصل القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا**﴾[2].

وهكذا يهدي الله رسوله ﷺ إلى انتهاج طريق مستقيم في تثبيت دعوته وبناء دولته دولة الإسلام الكبرى بعيداً عن الارتجال السريع والحماس المؤقت الذي يعجل بفناء دعوات المصلحين، فهو عليه السلام يبايع قبل أن يهاجر حتى لا تكون الهجرة ضياعاً وهروباً، وهو يوثق المواثيق مع قوم آمنوا بدعوته حتى لا يفتح باباً لضعفاء النفوس والمرجفين في أن يتسللوا إلى صفوف أتباعه الذين اختلفت بيئاتهم ولم تجمع بينهم إلا أواصر الإيمان، ويتريث النبي في العام الأول حين يلتقي بأولئك النفر القليل، وفي العام القادم يلتقي باثني عشر نقيباً، وفي العام الثالث يجتمع مع الوفد الكبير الذي ناهز السبعين وقد اطمأنت نفوسهم بإيمانها وانعقدت عزائمهم على مناصرة هاديهم ومرشدهم فتعززت بذلك الدعوة واستفاد الداعية من الزمن في تعميق أسس بناء مجتمعه الإسلامي.

بناؤه للمجتمع الإسلامي:

كان النبي ﷺ خلال فترة حياته المكية والمدنية يجاهد في ميدانين متكاملين يحارب أعداء الحق ليجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ويربي المؤمنين ويعلمهم أحكام الدين، وينظم المجتمع الإسلامي على أساس من العدل والفضيلة. ومنذ أن استقر النبي ﷺ في المدينة لم ينس قط وهو يؤدي دور رجل الدولة رسالته السماوية مبشراً ومبيناً، كما لم يتوان لحظة في التزام ورعه وتقاه وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملأ قلبه الرأفة يصوره كذلك كرجل دولة صريح قوي

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام المجلد الأول ج ١، ٢ ص ٤٤٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

الشكيمة لا يخشى في الحق لومة لائم[1]. ولقد كان دور الداعية الأول متميزاً في توطيد المجتمع الإسلامي في المدينة فكان عليه قبل مواجهة الآخرين تنظيم صفوفه من الداخل لإزالة العداوات التي ورثتها القبائل العربية قبل ظهور الإسلام فكان أول عمل قام به هو مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار بعد أن آخى بين الأوس والخزرج فدشن بذلك أساس مجتمع يقوم على وحدانية الله وعلى أسمى التعاليم الاجتماعية والخلقية، وحينما افتتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف ضربت إليه وفود العرب من كل وجه وكان في سنة تسع وإنها كانت سنة الوفود[2].

ولقد ذكر ابن سعد(*) في طبقاته[3] أن النبي ﷺ اتجه إلى استقبال الوفود التي بدأت تترى إلى المدينة تبايعه على الإسلام، وكان يأمرهم بالرجوع إلى بلدانهم ويكلفهم بتبليغ الدعوة بين أهلهم وعشيرتهم ومن أمثلة الوفود التي قدمت إلى المدينة وفد من قبيلة مزينة كان عددهم أربعمائة، ووفد من بني عبس قدموا على النبي قبل الفتح وأسلموا وبايعوه على النصر[4]، ووفد من أشجع مؤلف من سبعمائة قدموا إلى المدينة عام الخندق فنزلوا شعب سلع وأمر لهم النبي بأحمال من التمر ثم خرج إليهم حيث أسلموا جميعاً، وأن وفداً من سليم خرجوا إلى رسول الله ﷺ فأدركوه قبل فتح مكة وهو في طريقه إليها وهم تسعمائة وأسلموا وشهدوا الفتح ويوم حنين[5].

وإن وفداً من الأشعريين برئاسة أبي موسى الأشعري ركبوا البحر ونزلوا جدة وجاؤوا إلى المدينة في السنة السادسة فأسلموا وأقاموا فيها كما أسلمت قبيلة أسلم

---

(١) إنسانية الإسلام ـ مارسيل بوازار ت، عفيف دمشقية ص ٤٦، ط ٢ ـ دار الآداب بيروت.

(٢) خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر ـ أحمد محمد عساف ص ٣٣٨، ١٩٨٣.

(٣) طبقات ابن سعد ج ١، ص ٢٩١ ـ دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٥.

(٤) الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم، حامد عبد القادر ص ٢٠١ ـ دار نهضة مصر القاهرة ط ٢ ـ ١٩٦٤.

(٥) طبقات ابن سعد ج ٢، ص ٧٠، ٧١.

(*) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري لازم في بغداد المؤرخ الكبير الواقدي من أشهر كتبه ـ الطبقات الكبرى ـ علوم الحديث ومصطلحه د. صبحي الصالح، ص ٣٣٨، توفي سنة ٢٣٠ هـ.

وغفار فقال في شأنهما رسول الله ﷺ: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها»[1].

وفي هذا الوقت الذي انطلقت فيه الوفود إلى المدينة تعلن إسلامها كان الرسول الكريم يفكر في مواجهة نفوذ الفرس والروم وكان لا يتردد وهو المكلف بتبليغ الرسالة إلى الناس كافة في دعوة ملوك ورؤساء هاتين الدولتين إلى دين الحق دون خشية لما قد يترتب على عمله هذا من نتائج، وما إن عزم رسول الله ﷺ على إرسال الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإيمان حتى جمع أصحابه واختار منهم من هو أهل لتحمل هذه المسؤولية وحذرهم ألا يختلفوا عليه كما فعل بنو إسرائيل بعيسى، وانطلق الرسل يحملون الرسائل إلى الروم وفارس يبلغونهم ويتركون لهم حرية اختيار العقيدة.

وإن دعوة الرسول ﷺ التي وجهها إليهم ما انطلقت منه إلا لما كان يكنه لهم من الرغبة في الاهتداء إلى الحق وهي رغبة كريمة تعبر عن مدى ما كان يحمله الرسول في قلبه من آمال طيبة ورغائب نبيلة كان ينتظر لها أن تقابل بالمثل فيرحب بها أو تستمهل لتدرس، بيد أن الذي يؤسف له أنها قوبلت بمثل ما قابلها المشركون الجاهليون بمبادرة الصد والرفض ثم بخطوات متشنجة متهورة أقساها ما كان من عامل هرقل على بصرى حيث قتل رسول رسول الله الموفد إليه[2].

وهكذا كان محمد النبي قد اجتمعت فيه كمالات بلغ في كل منها الذروة، فهو العابد المبتهل الذي يذوب خشوعاً وهو المقاتل الصنديد الذي يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم وألوف الأبطال يفرون أمامه كالجرذان، وهو المخطط العبقري الذي يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة، وهو السياسي الحاذق الذي يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر، وهو المحدث الذي ينطق بجوامع الكلم، وهو الأب والزوج والصديق فلا تمنعه الأعباء الجسام من ملاطفة الطفل والوليد فيحمله على كتفه راكعاً ساجداً، وهو أخيراً صاحب الدعوة الذي يقيم نظاماً وينشىء دولة من عدم[3].

---

(١) صحيح البخاري كتاب المناقب ج ٤، ص ٢٢٠.

(٢) حياة محمد، محمد حسين هيكل ص ٤١٠، ط ٥ مكتبة النهضة ـ القاهرة ١٩٦٨.

(٣) محمد مصطفى محمود ص ٢٢ ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٧٥ م.

الفصـــل الرابـع

إعداد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للدعاة

لقد كان الرسول ﷺ هو النموذج الإسلامي الأعلى للداعية وكانت صورته وتجربته موضع القدوة طوال فترات التاريخ الإسلامي، فهو الذي لقي العنت في سبيل الدعوة فصبر وكان يفرق بين موقفه في الغار ولا قوة معه يلتمس نصر الله وموقفه في بدر ومعه القوة المؤمنة، وكلما توفرت له القوة فهو وجل من أن يكله الله إليها فهو يلتمس نصر الله مجدداً وقد علّم خلال السنوات الثلاث عشرة في مكة والسنوات العشر في المدينة جيلاً من القادة الدعاة رباهم على التضحية، وقد ظل ذلك الرعيل الأول موضع إعجاب الأجيال المتتالية ومثلاً يحتذى به فنشروا الدين في الآفاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[1] ففي هذه الآية دلالة على أن أصحاب الرسول ﷺ مكلفون بنشر الدعوة بقدر ما يستطيعون، وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة واجباً على الأعيان، ثم لما ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجباً على الكفاية وهذا الواجب لا يتعرض للنسخ فالآيات والأحاديث التي وردت فيه ليست من المنسوخ بل هي من الواجبات الباقية التي قد يعتريها النسء ولا يعتريها النسخ أي إنه قد يتوقف العمل بها عندما تزول علّتها كأن يكون المسلم ضعيفاً في ديار الكفار ولا يستطيع نشر عقيدته، بل يكتفي بالدفاع عنها وإقامة

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

شعائرها، وعندما تعود إليه القدرة وترجع علة الحكم يرجع الواجب على خلاف النسخ الذي هو زوال حكم شرعي بحكم شرعي آخر.

فالمسلمون مكلفون بإبلاغ الدعوة كيف لا والنبي قد أمرهم بذلك في حياته والدعوة أحوج إليهم بعد وفاته، ومن حرصه ﷺ على تبليغ الدعوة إلى آفاق الأرض أنه بادر بإرسال الدعاة إلى الأطراف المجاورة لدولته ولم يرج ذلك الأمر مقدماً مصلحة الدعوة على مصلحة الدولة، بل إنه ﷺ قبل بناء دولة الإسلام بالمدينة مهّد لأساسها بإرسال الدعاة قبل قدومه إليها يحملون تعاليمه حتى ينشأ القوم المحتضنون للدعوة ولأتباعها المهاجرين على تلك التعاليم يحدوهم الإيمان العميق ويحليهم العمل الصالح.

إرسال النبي للدعاة:

رأى النبي ﷺ بعد بيعة العقبة الصغرى أن يرسل إلى المدينة رجلاً يحسن قراءة القرآن، فاختار مصعب بن عمير لهذه المهمة وهو كفء للدور الذي اختير للقيام به فأخذ يعلمهم مبادىء الإسلام ويقرئهم القرآن ويؤمهم للصلاة ولذلك سمي في المدينة «المقرىء» وكان حسن سمته وعلو أخلاقه يجذب نحوه الأتباع فنجح في نشر الدعوة وأقبل الناس عليه واهتموا بما وضحه لهم، جاء في السيرة النبوية لابن هشام أنه قام ومعه أسعد بن زرارة يدعوان إلى الإسلام بني عبد الأشهل وبني ظفر وهما من أقوى الأنصار حتى أسلم سعد بن معاذ الذي كان لإسلامه الأثر الكبير في إسلام بني عبد الأشهل[1].

وحيث إن القبائل العربية التي أعلنت إسلامها لم يكن في استطاعتها أن تحضر إلى المدينة لتلقي تعاليم الإسلام وحتى الوفود التي حضرت فإن بقاءها بالمدينة غير كاف لتعليمها فرائض الإسلام وفضائله لذا كان على رسول الله ﷺ أن يرسل إلى هذه القبائل من يعلمها أمور دينها ويوضح لها الحلال والحرام وأن يرسل إلى المناطق المجاورة كتباً ورسلاً يدعوهم إلى الإسلام فأرسل عليه السلام من قبله

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ج ١، ٢ ص ٤٣٥، المجلد الأول.

بعوثاً إلى جهات متفرقة كانت مهمتهم تختلف باختلاف المرسل إليهم وقد اختار النبي ﷺ تقديراً منه لدور الداعية من يقوم بهذه المهمة إيماناً واحتساباً غير مبال بعواقبها عند من يدعوه فعن ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة، فقال رجل: وإن لم يقبل؟ قال وإن لم يقبل. فأخذ دحية الكلبي(*) الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب انتصاره على الفرس، ولقد قام دحية بمهمته خير قيام وهو الصحابي المشهور وأول مشاهده الخندق وكان يضرب به المثل في الحسن وكان جبريل عليه السلام ينزل على صورته: روى النسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي[1] وقد شهد دحية اليرموك وكان على كردوس وقد نزل دمشق وسكن المزة حتى خلافة معاوية.

وإذا ما أوردنا ما نصح به العلاء الحضرمي(**) الذي بعثه الرسول ﷺ بكتابه إلى أمير البحرين «المنذر بن ساوى» لرأينا كيف كان الرسول يتخير الصحابة القادرين على المجادلة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة يقول الشيخ محمد الغزالي: «وقد أبلغ، العلاء في ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام فما قاله له يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغر عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكريم العرب ولا علم أهل الكتاب يأكلون ما يتنزه عن أكله وينكحون ما يستحى من نكاحه ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ولست بعديم عقل ولا رأي فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ولمن لا يخون ألا تأمنه ولمن لا يخلف ألا تثق به»[2].

فرحب المنذر بالدعوة وانشرح صدره لقبولها وأعلن إسلامه وعرض على

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين العسقلاني ج ١، ص ٤٧٣ ط ١، ١٣٢٨ هـ.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٣٩٠.

(*) هو دحية بن خليفة الكلبي توفي سنة ٤٥ هـ، كتاب الأعلام ج ٢، ص ٣٣٧.

(**) العلاء الحضرمي: هو العلاء بن عبد الله الحضرمي ولد بمكة ولاّه الرسول البحرين ووجهه عمر إلى البصرة فمات في الطريق سنة ٢١ هـ، الأعلام ج ٤، ص ٢٤٥.

قومه الإسلام، فمنهم من أعجبه فدخل فيه ومنهم من بقي على مجوسيته فاستشار فيهم رسول الله ﷺ ما يفعل بإزائهم فكتب له من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية[1].

وحينما أرسل النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة(*) إلى المقوقس عظيم القبط جمع بطارقته ووجه إلى حاطب أسئلة تتعلق بالنبي ﷺ وقومه، ومما قال له: أليس محمد نبياً؟ قال حاطب: بلى قال المقوقس: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها، قال حاطب: عيسى ابن مريم ألست تشهد أنه رسول الله قال المقوقس: بلى قال حاطب: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم؟ عندها قال المقوقس: «أنت حكيم جاء من عند حكيم»[2]، وحكمة حاطب تتمثل في قدرته على تحويل مقالة الخصم من حجة له إلى حجة عليه وذلك أبلغ في الاستدلال فهو يجاري الخصم ثم ينقلب عليه بعد ذلك، ولا شك أن حاطباً قد تعلم ذلك من أسلوب النبي ﷺ في محاجة الخصوم وأعانه على حسن تصرفه الذكي الذي استضاء بهدي الإيمان.

وأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري الذي عرف بالحكمة والبيان فقال للنجاشي: إن عليّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقّة علينا منا وكأنا بالثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ولم نأمنك على شيء إلا أمّناه[3].

روت أم سلمة وكان زوجها من المهاجرين إلى الحبشة، أن النجاشي دعا المهاجرين يسألهم عن الدين الذي أخرجهم قومهم بسببه من مكة فخاطبه جعفر بن أبي طالب(**) بكلام بليغ ثم قرأ عليه سورة مريم فبكى النجاشي حتى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، ج ١٢، ص ٣٨.

(٢) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص ٣٨٧.

(٣) الدعوة إلى الإصلاح ص ٥٤ ط ٢، نشر علي الرضا التونسي ١٩٧٣.

(*) صحابي جليل من الرماة ذو تجارة واسعة شهد الوقائع كلها مع النبي مات بالمدينة سنة ٣٠ هـ، كتاب الأعلام ج ٢، ص ١٥٩.

(**) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم من السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين إلى =

اخضلت لحيته ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة. ونرى من هذا أن جعفراً بكياسته الهاشمية اختار السورة المناسبة التي ذكر فيها ميلاد المسيح لأنه كان يخاطب رجلاً مسيحياً، فكان ذلك أدعى لاستجابته وأقرب لهدايته.

كما بعث الرسول ﷺ إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي(*) فخاطب كسرى قائلاً: قد ملك قبلك ملوك أهل الدنيا وأهل الآخرة فأخذ أهل الآخرة بحظهم من الدنيا، وضيع أهل الدنيا حظهم من الآخرة فاختلفوا في سعي الدنيا واستووا في عدل الآخرة.

وقد بعث النبي ﷺ إلى إحدى أقاليم اليمن علي بن أبي طالب وكان قد سبقها إليه خالد بن الوليد وقد أوصى الرسول ﷺ علياً بوصايا نذكر منها الوصية التي أوردها السرخسي(**) في كتابه السير الكبير حيث قال: «إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم حتى تريهم إياه ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله[1]، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت»[2]. ونفذ الإمام علي تعليمات الرسول ﷺ فلم يقاتلهم وإنما دعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن فأسلمت همدان كلها، فكتب علي بذلك إلى رسول الله فلما قرأ الكتاب خرّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال: «السلام على همدان»[3].

= الحبشة استشهد في غزوة مؤتة وقطعت يداه فلقب بالطيار سنة ٨ للهجرة، كتاب الأعلام ج ٢، ص ١٢٥.

(١) شرح السير الكبير، السرخسي ج ١، ص ٢٣٤ ـ مطبعة جامعة القاهرة.

(٢) عمدة القارىء، العيني ج ١٤، ص ٢٥٨.

(٣) الكامل، ابن الأثير ج ٢، ص ٢٠٥ ـ ط ٣ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٨٠.

(*) هو صحابي جليل أحد المهاجرين إلى الحبشة شهد الوقائع كلها وعاش حتى شهد فتح مصر وتوفي بها سنة ٣٥ هـ، كتاب أعلام الصحابة ص ٢٧.

(**) أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي فقيه حنفي له كتاب من أوفى كتب الحنفية في الفقه من ثلاثين مجلداً أملاه وهو في الجب سجيناً من ذاكرته بفرغانة، من كتاب، تاريخ الأدب العربي، ج ٦، ص ٢٩١.

ولقد عهد النبي لعلي بالقضاء في اليمن رغم صغر سنه، فقد روى الإمام أحمد عن علي كرم الله وجهه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حدث لا أبصر القضاء فوضع يده على صدري وقال: (اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، يا علي إذا جاءك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك الحق»[1]. ولقد صدقت الدعوة النبوية في علي فقد ثبت الله لسانه حتى كان من خطباء المسلمين وهداه في القضاء حتى قال عنه النبي: أقضاكم علي وكان عمر يسأله إذا أعضل عليه القضاء ويقول مسألة ولا أبا حسن لها، وهكذا كان (علي) الداعية المستجاب في دعوته للإسلام فآمنوا لفرط تقواه وإشراق نور الإيمان في قلبه فما يخرج من القلب يصل إلى الألباب وإخلاص الداعي هو الجاذبية التي تحوط المدعو فتهديه إلى الإيمان.

وممن اختارهم النبي ﷺ لتعليم الناس أمور دينهم في اليمن معاذ بن جبل وقد كلفه الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام وأخذ الخراج والجزية وجمع الصدقات فكانت الولاية العامة شاملة لكل ما يتعلق بإدارة الحكم، كما فوض إليه أمر قضاء جهة من اليمن، روي أن الرسول ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله فقال عليه السلام: فإن لم يكن؟ قال: فبسنة رسول الله، قال عليه السلام فإن لم يكن في سنّة رسول الله؟ قال معاذ: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله على صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١، ص ١١١ ط ٢ ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ج ٥، ص ٢٣٦.

وترد على فقرائهم»[1].

ومن خلال ما تتبعناه من أسلوب أولئك الدعاة مع المدعوين الذين أرسلوا إليهم، نرى حسن الإعداد جلياً في مخاطبتهم ومسالكهم مع الملوك والأمراء والعامة حيث رباهم النبي ﷺ على الحكمة والموعظة الحسنة بعد أن اكتشف فيهم تلك الاستعدادات التي تؤهلهم لأن يحملوا رسالة الدعوة، ولقد كان عقلاء الملوك المخاطبين بالدعوة يلمحون أثر تلك التربية ومخايل تلك الاستعدادات حتى قال أحدهم وهو المقوقس: أنت حكيم يقصد حاطباً جاء من عند حكيم يقصد الداعية الأول محمد ﷺ، فاكتملت فيهم صفات الداعية لاكتمال إيمانهم وحسن استعدادهم ونفاذ بصيرتهم وحسن تربيةِ النبيِّ لهم فكانوا خير دعاة لخير دين.

* * *

(١) رياض الصالحين، الإمام النووي ص ٤٥٥ ـ مكتبة الغزالي ـ دمشق وبيروت ١٩٥٥ م.

الفصـــل الخامـس

صفات الداعية
كما يصورها الكتاب والسنة

الصفات الخلقية والخلقية:

من خلال الدراسة للداعية الأول محمد ﷺ وإعداده للدعاة وما قام به الصحابة والتابعون من بعده من نشر للإسلام في ربوع المعمورة، ثبت جلياً أن إبلاغ الدعوة إلى الناس يقتضي وجود وسائل متنوعة لتصل إليهم في كل مكان وزمان، وأن الداعية هو بحق وسيلة الوسائل وأساسها العملي لذلك اشتمل القرآن الكريم والسنة النبوية على بيان شاف لتكوين الداعية الذي يبلغ دعوة الله إلى الناس.

١ ـ شخصية الداعية وإيمانه بدعوته:

إن الداعية هو وارث النبي في مهمته الإرشادية والقائم مقامه في إبلاغ دين الله، وإذا كانت مهمة النبي ﷺ في زمنه صعبة فإن مهمة الدعاة اليوم كذلك لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة ومجادلة المخالفين بالحسنى[1].

إن تأثير الداعية بشخصيته اللامعة وصحته النفسية وإشعاعه العلمي وبما يملك من قدرات على التحليل والإقناع ومن عمق في التفكير وإلمام بمشاكل العصر

(١) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص ٤٣٢.

وقضاياه مع اطلاع على الثقافات المعاصرة وما ظهر في هذا العصر من مذاهب فلسفية، كل ذلك من أقوى العوامل التي تمكنه من أداء رسالته على الوجه الأمثل[1].

يقول توماس أرنولد[*]: «لا يعرف الإسلام مما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول، وقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قلل الجبال واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة، ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده الخالد، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها»[2]، فلا بد للداعية الذي يريد أن ينتصر في معركته على الضلال أن يتسلح بأسلحة شتى لازمة له في الدفاع والهجوم وأول هذه الأسلحة سلاح الإيمان فبدونه يبطل كل سلاح، وليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن الإيمان هو الذي جعل بلالاً يتحمل الصخر وهو يجثم على صدره، وصهيباً يستعذب حرارة النار وسمية تستخف بالقتل، لما سئل عبد الله بن المبارك[*] رحمه الله لماذا يجلس الناس إلى بعض الوعاظ والمرشدين فيتأثرون بهم ويبكون بين أيديهم؟ تصل الكلمة إلى آذانهم فتسلك طريقها إلى قلوبهم فتستقر فيها وتترجمها جوارحهم عملاً خيراً يصدق ما في قلوبهم، فإذا جلسوا إلى آخرين وذكروهم بمثل ما ذكرهم به الأولون فإنهم لا يتأثرون ويقومون من مجالسهم وكأنهم لم يكونوا فيها أجاب ابن المبارك السائل:

---

(١) من موضوع الدعوة إلى الإسلام د. التهامي نقرة ـ مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد السادس ١٩٨٩، ص ٦٦.

(*) توماس ووكر أرنولد مستشرق إنكليزي له كتب بالانكليزية في تعاليم الإسلام والمعتزلة والخلافة مات سنة ١٩٣٠ م.

(٢) الإسلام وحركة التاريخ: أنور الجندي ص ٢٣١.

(*) الإمام الكبير عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن كان محدّثاً توفي سنة ١٨١ هـ، كتاب علوم الحديث ومصطلحه ص ٩٠.

ثكلتك أمك النائحة المستأجرة كمن تبكي ولدها[1]؟ فكم من داع إلى مذهب يملك من القدرات الفكرية والوسائل المادية ولكن تعاليمه تذهب مع الرياح وأفكاره تندثر بموته ذلك لأنه لم يكن يعتقدها بقلبه، وإن كان يحوكها برأيه فليس الرأي كالعقيدة وليس الداعية المؤمن كغيره ممن يدعو إلى رأيه وهواه فالإيمان هو الجذوة التي تنير قلب الداعية ثم ينتقل شعاعها من قلبه إلى قلب من يدعوه إلى هدىً الله.

٢ ـ الصدق والأمانة:

إن الصدق فضيلة يجب أن يتحلى بها الداعية، لأن الصادق لا يخالف الواقع ولأنه يجب أن يتحلى بصفة الرسل ومنها الصدق لأن الدعوة في حاجة إلى صدق في التبليغ ودقة في النقل حتى يتحقق لدى المخاطبين بالدعوة أن ما يقوله الداعية هو رسالة السماء، ولقد كان لصدق الرسول وأمانته الدور الكبير في انتشار الدعوة الإسلامية في فجرها الأول وتنقل لنا كتب السيرة دلائل على ذلك، فمما روي أن هرقل ملك الروم حينما جاءه كتاب رسول الله ﷺ استدعى أبا سفيان الذي كان في تجارة هناك ولم يكن قد أسلم بعد ووجه إليه أسئلة كان من أهمها هل تتهمون محمداً بالكذب؟ فأجابه أبو سفيان: لا فقال هرقل: «أعرف، إنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[2]. وهذه الشهادة من عدوين لدودين للنبي ﷺ تؤكد للدعاة أن الصدق ضروري للدعوة وأن الداعية إذا لم يصدق في أقواله وأفعاله مع المخاطبين بالدعوة ذهبت أعماله أدراج الرياح والإسلام يربي المؤمنين ويحثهم على التزام الصدق في كل شيء، ولو جلب لصاحبه ضرراً يقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾[3]. ويوجه الرسول الكريم المسلمين إلى تحري الصدق فيقول: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[4].

---

(١) أسس الدعوة، محمد الوكيل ص ٩٤ ـ دار الوفاء ـ دار المجتمع للنشر والتوزيع ط ٢، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب البر ج ١٦، ص ١٥٩.

وما دام الإسلام يدعو أتباعه إلى الالتزام بالصدق فإن تحلي الدعاة بهذه الصفة من باب أولى لأنهم بصدقهم يحببون الناس فيهم فيقبلون عليهم يتلقفون منهم ما ينصحون به دون أدنى شك أو تردد.

ويرتبط بفضيلة الصدق صفة الأمانة فهي ضرورية للداعية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾[1].

وقد كان السلف الصالح يطردون القصاصين من المساجد لأنهم كانوا يبالغون في مواعظهم ويتجاوزون الحقيقة فيما يقصونه على الناس، وإن كانوا يستدرون دموع السامعين وهم يدعونهم إلى فضائل الإسلام ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة في منهج الإسلام وكذلك في عصرنا يجب أن نعزل عن طريق الدعوة كل وسيلة دعائية تتجافى عن الصدق والموضوعية كأشرطة الخيالة التي تصور مآثر الإسلام، ولكن في قصص محبوكة بالخيال بحيث لا يقدر الناظر إلى الإسلام من خلالها حق فضائله العظيمة وبمثل ذلك يجب أن نعزل كل وسيلة تتجنى على الحقيقة.

٣ ـ الرفق مع المدعوين:

يجب أن تتوفر في الداعية صفات الرفق والتواضع والحلم حتى يستطيع أن ينجح في مهمته، وفي القرآن الكريم دعوة صريحة إلى أخذ الداعين باللين والبعد عن الغلظة التي تكون سبباً في تنفير المدعوين قال تعالى في خطاب موسى وهارون حينما بعثهما إلى فرعون: ﴿**اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكر أو يخشى**﴾[2]. وبالرغم من ادعاء فرعون الألوهية فقد أمر الله سبحانه وتعالى موسى بمخاطبته بكلام فيه رقة ولين فقال: ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾[3]، وهذه هي لغة القرآن الكريم مع جميع الناس حيث نجد

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ١٨، ١٩.

في مستهل الآيات أو مختتمها قوله يا أهل الكتاب/ يا أولي الألباب/ يا أولي الأبصار.

ويندرج في سلك هذا الوصف الذي وصف الله به رسوله حيث نفى عنه الشدة وغلظة القلب فقال: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾[1]، فقد كان رسول الله ﷺ القدوة الحسنة للداعية الذي يعرف نفسية المدعوين فيخاطبهم حسب عقولهم ويعظهم بالحكمة، ومن الأدلة على ذلك أنه كان ينادي المدعو بلقبه المحبب إليه وينعته بوصف من شأنه أن يبعث صاحبه على قبول الموعظة والإنصاف في المجادلة فمما افتتح به الرسول ﷺ كتابه إلى قيصر بلقب عظيم الروم ونحا هذا النحو مع ملك فارس حيث وصفه بعظيم فارس.

والداعية حينما يجد الإنكار والجحود لدعوته من بعض الناس عليه ألا يرميهم باللعنات والشتائم فإن ذلك سبب لبذر الشقاق بينه وبينهم وربما يحملهم هذا التصرف على التعصب لهواهم والتعنت عن قبول الحق، ونحن على علم من أن طريقة اللعن والشتائم في المجادلة إنما يسلكها العاجز عن إقامة الحجة الدامغة أما من كان على بصيرة من رأيه فإنه لا ينزعج عند المجادلة بل يكون مطمئن الخاطر آمناً على عقيدته من صولة الباطل فينطق عن أناة ويتخير الأقوال الصائبة والبراهين القاطعة لإقناع معارضيه، ومن الحكمة الجمع بين الإعلان والإسرار في الدعوة لإزالة ما يقع في نفس المدعو من اتهام الداعي بأنه ما أراد من دعوته علانية إلا تلويث عرضه وإذاعة كلمة السوء عنه[2]، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام حين دعا قومه: ﴿**ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً**﴾[3] إن عناصر المجتمع إزاء الدعوات ثلاثة أصناف مؤيد ومحايد ومعارض، ومنهج الدعوة في مضمونه الحركي يقوم على المحافظة على ولاء المؤيدين ومحاولة كسب المحايدين والسعي إلى تحييد المعارضين ومجادلتهم بالحسنى، ومن هنا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٢) الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٩.
(٣) سورة نوح، الآيتان: ٨، ٩.

فإن الداعي لا يجوز له أن يتجاهل الناس من حوله أو يقصر علاقاته على الموالين وحدهم[1].

٤ ـ القدوة الحسنة:

يجب أن يكون الداعية صالحاً في نفسه مستقيماً في سيرته وهو شرط ضروري بالنظر إلى انتفاع الناس بإرشاده وتسابقهم إلى إجابته، فإنهم على ما نرى ونسمع لا تلين قلوبهم لموعظة واعظ، ولا يقتدون برأي مرشد إلا إذا وثقوا بأمانته وأبصروا في حالته الظاهرة مثالاً لما ينصحهم به فقد تبرأ شعيب ـ عليه السلام ـ من مخالفة قومه إلى ما حذرهم منه فقال: ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**﴾[2]. وجاء في كثير من آيات القرآن المسوقة في فضل الدعوة ذكر صلاح الداعي في نفسه واستقامته في عمله قال تعالى: ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً**﴾[3] وقال أيضاً: ﴿**هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾[4] وجاء في التنزيل ما فيه تقريع وتعجب من حال الذي يلقي الموعظة ويبسط لسانه بالأمر بالمعروف وهو يترك العمل به قال تعالى: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾[5].

وفي هذه الآية شاهد على أن من أرشد غيره إلى صالح وهو قابض يده عنه أو حذره مفسدة وهو لا يغادر موضعها، فقد خالف مقتضى الحكمة ودخل في حيز الذين **لا يعقلون**[6].

إن الداعية إذا وجد الناس في سيرته سيئات وتلقى في نفسه الزلة فيترك الدعوة حذراً من أن يلمزه الناس حين يقوم بينهم مقام الواعظ الأمين، ولقد جرت

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، التهامي نقرة ص ٧١.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٦) الدعوة إلى الإصلاح ص ٢٠.

عادة الناس على أنه من خرج عليهم في ثوب مرشد وقد علقت بسيرته وصمات سيئة لم يلبثوا أن يذكروه بها ومن ثم لا يهتمون بدعوته ولا يقبلون على موعظته وفي هذا الشأن يقول أبو الأسود الدؤلي[1].

يـا أيهـا الـرجـل المعلم غـيره هـلا لنفسـك كـان ذا التـعليـم
لا تـنـه عـن خـلق وتـأتي مـثـله عـار عـليـك إذا فعلت عـظيـم

إن الداعية إذا دعا إلى فعل شيء هو تاركه أو إلى ترك شيء هو يفعله لا تتجاوز دعوته الآذان إلى القلوب وتذهب كما يذهب الزبد جفاء، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه من العيب أن يدعو الداعي الناس إلى معروف لا يفعله فهو جدير بأبلغ عبارات التقريع فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[2]. ولقد كان القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى التأسي بالنبي في أقواله وأفعاله قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾[3].

لذا وجب على الداعية أن يكون ذا نفس زكية وساحة نقية لا مطعن فيها ولا مجال للذم بها فيكون كلامه أنفع وهدايته أبلغ.

٥ ـ الصبر على الأذى:

على الدعاة أن يوطنوا أنفسهم على تحمل ما يلاقون من العنت من أعدائهم حين يدعونهم إلى الحق الذي لم يعرفوه ويريدون إخراجهم من الباطل الذي ألفوه، ولقد أدرك هذه الحقيقة لقمان الحكيم وهو يوصي ولده وصيته المشهورة فرتب الأمر ترتيباً يجب على الدعاة مراعاته حين الدعوة حيث بدأ بإعداد النفس وأخذها بالطاعة، ثم ثنى بدعوة الغير ثم أمر بالصبر على ما يصيبه وتحمل ما يعرض له[4]، لأن الداعية عند تعرضه لدعوة الناس إلى الخير لا بد وأن يتصدى له أهل الشر.

---

(١) هو ظالم بن عمرو أول واضع للنحو العربي سكن البصرة وتوفي بها سنة ٦٩ هـ.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٤) أسس الدعوة، ص ٩٩.

وينالـه منهم أذى ولو كان قليلاً قال تعالى: ﴿**يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾[1]، وإن إيذاء المصلحين ومن قبلهم من الأنبياء والمرسلين هو سبيل الطغاة الظالمين عندما يفشلون في مقاومة الحجة، وفي القرآن الكريم تصريح لا يحتاج إلى توضيح بأن هذا الإيذاء للداعية إلى الحق لم يخل منه جيل ولم ينج منه داعية قال تعالى: ﴿**كذلك مـا أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون**﴾[2].

إننا نريد داعية كأن الملائكة أدبته والأنبياء ربته إن قام بأمر قعد به وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس بفعله وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، يملك ظاهراً أشبه منه بباطن وباطناً يخبر عن ظاهر.

ثقافــة الداعيــة

(أ) المعارف الدينية:

١ ـ القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على رسوله ويشتمل على كل تعاليم الإسلام، لذا ينبغي على الداعية أن يحفظ منه قدر ما يستطيع ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به في كل مناسبة تستدعي ذلك فالقرآن ذخيرة لا تنفد ومعين لا ينضب لإمداد الدعاة بالأدلة النقلية التي تعينهم على أداء مهمتهم ومجادلة المعاندين، ومن الضروري مداومة الداعية لتلاوة القرآن بخشوع وتدبر تفتح معه أقفال القلوب وتنشرح به الصدور وتقتبس العقول منه أنوار المعرفة[3].

فعلى الداعي إذا أراد أن يتحدث في موضوع ما أن يجمع الآيات المتعلقة بموضوعه ويعمل على تصنيفها بما يلائم الغرض مع فهم لمعانيها ومعرفة أسباب

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢، ٥٣.

(٣) ثقافة الداعية، يوسف القرضاوي ص ١١، ط ١١ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨٧،

النزول والأحكام التي تستنبط منها، ومما ينبغي للداعية الالتفات إليه قصص وأمثال القرآن وما اشتمل عليه من عبر وعظات مع التركيز عند سرد القصة على ذكر الحقائق العلمية التشريعية، كما يجب عليه أن يحسن الاستدلال بالآيات القرآنية فيضعها في موضعها فيكون بذلك قد قطع الطريق أمام المعاندين والمشككين إذ لا دليل أقوى من القرآن قال تعالى: ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾[1]. ولا بد للداعية من الاطلاع على بعض الكتب التي ألفت في علوم القرآن إذ هي المدخل لدراسة القرآن، ثم الاطلاع على كتب التفسير سواء منها كتب التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي، ولا يكتفي بكتاب واحد إذ إن لكل منها مزاياه مع الاطلاع على تفاسير المحدثين لأنها شارحة ومبينة للقرآن بلغة العصر.

٢ ـ السنة النبوية:

إن المصدر الثاني للثقافة الدينية للداعية هو السنة فهي شارحة للقرآن مبينة له مفصلة لما أجمل منه وفيها يتمثل التفسير النظري والتطبيق العملي لكتاب الله قال تعالى في هذا الشأن: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2]، والسنة النبوية تشمل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وسيرته وعلى الدعاة أن يوجهوا عناية خاصة للجزء العملي من السنة وهو الذي يتعلق بسيرة النبي وهديه في كافة شؤون الدين والدنيا لأن رسول الله ﷺ كان نموذجاً حياً للفضائل والأخلاق التي دعا إليها القرآن، وعلى الداعية أن يطلع على كتب الحديث الصحاح لا سيما صحيح البخاري وصحيح مسلم وعليه أن يسترشد بالأحاديث الواردة في الدعوة إلى الهداية وتربية النفوس وبذر الخلق الكريم في قلوب الناشئة والداخلين في الإسلام مما طفحت به أحاديث الرسول وسيرته العطرة، كما أنه لا مناص للداعية من الاستبصار بعلوم الحديث حتى يميز الحديث الصحيح من الضعيف والموضوع ليدفع شبهات أثيرت بأحاديث وضعها أعداء الإسلام.

٣ ـ علم العقائد الإسلامية:

حيث إن أول مقصد من مقاصد الدعوة هو الإيمان بالله وصفاته والمغيبات

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

التي أنبأ عنها بطريق الوحي والإيمان بالرسل والأنبياء وصفاتهم، فإن الداعية لا غنى له عن التزود من مسائل علم العقائد على الرغم من أن هذا العلم قد خالطته فلسفة المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وماتريدية وغيرهم، لكن فيه استدلالات على واجب الوجود تنفع الداعية في دعوته، وفيه تفنيد لشبهات يثيرها الملاحدة، وأمام الباحث كتب سطرت بلغة تستظل بظلال القرآن والسنة وتنأى عن خلاف علماء الكلام وخوضهم في المسائل الجدلية ككتاب «عقيدة المسلم» لمحمد الغزالي وكتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان إلى غير ذلك من الكتب.

٤ ـ الفقه:

وللعلاقة الوثيقة بين الإيمان القلبي والسلوك العملي في شخصية المسلم، فإن الداعية ملزم بالتفقه في الأحكام العملية التشريعية التفصيلية فهو بعد هداية من يدعوهم إلى الاستمساك بعروة الإسلام الوثقى والنطق بالشهادتين سيجد الحاجة ماسة إلى تفقيههم في العبادات والمعاملات والضروري من الدين مما ينظم علاقتهم مع ربهم وعلاقتهم مع بعضهم بعضاً، وعليه أن يكون متفتح الصدر لآراء المدارس الفقهية فيأخذ منها ما قويت حجته وعمت فائدته وألا ينشغل بالخلاف عن الانصاف.

فليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر وعليه أن يربط الصلة بين ما ينتقيه من آراء فقهية وبين آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ لأنهما معينا العقيدة الإسلامية والفقه الإسلامي وله أن يستعين بأمهات كتب الفقه التي حبرها أئمة كانوا دعاة وفاق، ولم يكونوا دعاة خلاف ككتابي «الأم والرسالة» للشافعي و«الموطأ» للإمام مالك، ويستعين بكتب أصول الفقه لأنها تشرح القواعد الإجمالية التي تعود إليها الأدلة الفقهية التفصيلية حتى يكون الداعية قادراً على تخريج الأحكام للقضايا الطارئة في محيطه الذي يدعو فيه قدر طاقته العلمية.

إن ما نراه اليوم بين الدعاة من اختلاف في الرأي والحكم اختلافاً يثير الشك أكثر مما يعبر عن تنوع وجهات النظر في قضية من القضايا الدينية إذ ليس منشأ الاختلاف النظر والاجتهاد، بل سببه شخصية الداعي وما تتسم به من تفتح

وتزمت ومن التزام حرفي بالنص أو من تصرف في حدوده حسب الظروف والأحوال مما يعرض الدعوة للشك وسوء التأويل، ويجعل المدعوين ينظرون إلى الداعية نظرة توجس وارتياب.

(ب) المعارف العامة:

١ ـ اللغة العربية:

إن الدعاة مطالبون بتعلم اللغة العربية والاعتناء بنشرها بين المسلمين لتصبح كما كانت اللغة الواحدة للمسلمين مهما نأت ديارهم وتعددت أجناسهم واختلفت ألسنتهم، والسبيل إلى هذا هو العودة إلى القرآن الكريم الذي حقق للمسلمين الوحدة اللغوية في سالف تاريخهم[1].

فاللغة السليمة تمكن الداعي من تقديم الدعوة في الصورة المقبولة واختيار الألفاظ التي تناسب المخاطبين، كما أنها تعينه في الحصول على المعارف الإسلامية من مصادرها الأصلية إذ ليس ثمة أية لغة أخرى تغني عنها في هذا المجال، وهذا الشعور هو الذي فرض على المستشرقين والذين يعتنون بالدراسات الإسلامية من غير العرب أن ينكبوا على دراسة اللغة العربية ويفتحوا لذلك المدارس العربية في أوطانهم لأنهم على يقين أنه بدون دراسة اللغة العربية والتعمق فيها فإنه من الصعب دراسة الفكر الإسلامي واستيعابه، ولئن كان الكثير من الأعاجم قد دخلوا الإسلام فإن عجميتهم حالت بينهم وبين فهم أحكام الإسلام وحسن تطبيقها فقاموا بأعمال لا تمت إلى الدين بصلة وعذرهم في ذلك عدم فهمهم للغة العربية.

وإذا كان تعلم اللغة العربية ضرورياً لكل داعية فإن إجادته للغة المدعوين أكثر ضرورة، وذلك لأجل إقناعهم ومجادلتهم ودحض ما يظهرونه من شبه وما يطرحونه من تساؤلات، وإذا لم يكن الداعية ملماً بلغة القوم الذين يدعوهم فإنه

---

(١) اللغة العربية وضرورتها للداعية، هاشم الشريف ص ٢٣٦، من أعمال الملتقى الثاني لخريجي كلية الدعوة الإسلامية ١٩٨٨ ـ طرابلس ـ ليبيا.

من الصعب عليه القيام بمهمة الدعوة ولذا يجب أن تفتح الدورات في اللغات الأجنبية للدعاة فكلما تمكن الداعية من فهم وإتقان لغة القوم الذين يدعوهم كان ذلك معيناً له على إيصال دعوته وفكرته إليهم ومجادلتهم بالحسنى.

٢ ـ التـــاريخ:

إن دراسة سير الأولين يعطي فهماً لطبائع البشر ومعرفة بأحوالهم، ولذا كان على الداعية أن يلم بقدر كاف من سير السابقين التي تحكي معيشتهم وأحوالهم والظروف التي مرت بهم.

ولقد كان للقصص القرآني الدور الكبير في نشر الدعوة الإسلامية بما حكاه من حوادث كانت عبرة لمن يعتبر يقول تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾[١].

وقد أوضح الله لرسوله أنه لا علم له بأخبار السابقين لولا قصص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين**﴾[٢]. والداعية وهو يستعين بالتاريخ والسير على إيضاح دعوته حريّ به أن يأخذ العبر ويغوص في الحوادث ويقرن المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسببات ولا يتعلق بروايات سطحية المعنى، ويتشبث بأشخاص وتواريخ وأماكن ويدعي بأنه يستخدم التاريخ في دعوته.

والله سبحانه وتعالى يقول بعد عرض قصة يوسف وهي أطول قصة جاءت في سورة واحدة يبين في ختامها أنه يسوقها لأجل الاعتبار لا لأجل التسلية والترويح، وما ضمنه فيها من مواقف وحوادث تتكرر مع الزمن ولا ينحصر في زمن يوسف عليه السلام يقول تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾[٣]. ويقول في ختام قصة نوح عليه السلام وإغراق ابنه في الطوفان مخاطباً الداعية الأول محمد ﷺ: ﴿**تلك من**

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١١١.

أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾[1]. فيقدم القرآن ثمرة هذه القصة للنبي وهي الصبر والتزام التقوى، فقد صبر نوح عليه السلام على أذى قومه فنجا من الطوفان وهلك أعداؤه الساخرون به ولم يؤمن ابنه فهلك مع أنه ابن نبي لأنه عمل غير صالح.

فعلى الدعاة أن يهتموا بدراسة التاريخ لأنه هو الذي يوضح سيرة السابقين.

٣ ـ علم الجغرافيا:

لقد أشار القرآن الكريم إلى الجغرافيا حيث وجه أنظار النبي ﷺ والمسلمين إلى مكة البلد الحرام لتكون قبلة لهم في صلاتهم بدل بيت المقدس فقال تعالى: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾**[2].

وأمر الله عباده أن يضربوا في الأرض ويتعرفوا على الأمصار ويخبروا الأوطان ليأخذوا العظة والعبرة فقال تعالى: **﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[3].

والداعية في حاجة ماسة وهو يقوم بنشر دعوته إلى معرفة الجغرافيا ليسهل عليه التنقل بين البلدان دون صعوبة وعناء، كما أن معرفته بالجغرافيا الطبيعية وأحوال السكان ومعيشتهم تساعده في التعامل معهم.

وقد كان النبي ﷺ يراعي ذلك عند إرساله للدعاة، فكان يرسل الداعية إلى بلاد سبق له معرفتها كإرساله عمرو بن العاص إلى الحبشة وحاطب بن أبي بلتعة إلى مصر.

٤ ـ علم الاجتماع:

يجب أن يصبح الداعية من خلال دراسة علم الاجتماع على دراية تامة

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١.

بالطبيعة الإنسانية في ظروفها الاجتماعية، وهذا معناه أن يمتلك الداعية في رصيده المعرفي معلومات كافية عن اختلاف الناس من حيث البيئة الاجتماعية فيما يتصل بعاداتهم وتقاليدهم وأصولهم العرقية ومشكلاتهم الاجتماعية وتحيزاتهم الثقافية، وكذلك معرفة الدور الذي تلعبه النظم والأنماط الاجتماعية في حياة المدعوين[1].

والداعية وهو يدعوهم عليه أن يؤاخي بين تعاليم الإسلام وبين عاداتهم الخيرة قدر المستطاع حتى يأنسوا بالإسلام ويدخل إلى قلوبهم بسلام، وعليه وهو يباعدهم عن عاداتهم السيئة التي تعارض تعاليم الإسلام ألا يدفعهم دفعاً ولا يصدهم صداً عنيفاً، بل يأخذهم بالتدرج بعد تلك المؤاخاة التي يعقدها بين محاسن عاداتهم وفضائل الإسلام، فإن كانوا قوماً يميلون إلى الإدمان على الخمور مثلاً نوّه بقيمة العقل ووجوب المحافظة عليه وأنبأهم بطريقة الإسلام في معالجة الخمر وأعلمهم حرمة تناوله، ولكن إذا صادف منهم إصراراً على شربه سد أمامهم الذرائع كأن يقودهم إلى ما يشغلهم عن شربه ويستغل الفرصة المناسبة لإقناعهم بمضاره ويستعين ببعضهم من ذوي الخبرة الطبية في ذلك ويقرر لهم دائماً أن الإسلام ما حرم الخمر تعذيباً للنفس وحرماناً لها من الملذات، بل منعه محافظة على العقل وصيانة للجسم.

وقد علّم الداعية الأول الدعاة كيف يلائمون بين دعوتهم وأحوال المدعوين الاجتماعية فهو في وصيته لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن يقول: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب»[2]. أي إنهم على علم بما لم يعلمه غيرهم من العرب من علوم الدين والحياة كأنه ينبهه إلى مراعاة أحوالهم، الحضارية فيخاطبهم بما يلائم أحوالهم كما أن القرآن الكريم في حكايته لأحوال الأنبياء مع قومهم يظهر هذا الجانب ففي محاورة هود لقومه عاد يستشهد عليهم بما ظهر من نعم الله في حياتهم التي بلغت درجة عالية من الحضارة يقول تعالى على لسان هود: ﴿**أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**

---

(١) المعارف اللازمة للداعية، عمر الطويبي ص ٨٤ من مجلة كلية الدعوة ـ العدد الخامس ١٩٨٨ م.
(٢) محمد رسولاً نبياً، عبد الرزاق نوفل ص ١٠٧ ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦١.

وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾[1] وقال في موضع آخر من سورة الشعراء: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾[2].

ويقول على لسان صالح يخاطب قومه ثمود: ﴿أتُتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم﴾[3].

٥ ـ علم النفس:

ويهدف إلى جعل الداعية يدرك الطبيعة الإنسانية في مفهومها الصحيح ويتعرف على مكونات شخصية الأفراد وما يجذبهم إليه وما ينفرهم منه، ويتعرف على المؤثرات التي تغير سلوكهم ليحدد كيفية التعامل معهم والمنهج الذي يسلكه في دعوتهم وقد أفردنا لهذا الموضوع باباً كاملاً بعنوان «المخاطبون بالدعوة».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيات من ١٢٨ إلى ١٣٤.

(٣) سورة الشعراء، الآيات من ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

الفصـــل الســادس

مقاصد الدعوة إلى الله تعالى

إذا كان لكل دعوة غاية فإن الدعوة الإسلامية متميزة بشمول غايتها لمرامي كثيرة تتلاقى لإسعاد الإنسان الملتزم بهذه الدعوة سعادة تامة واسعة سعة آفاق هذه الدعوة التي لا تحد بعمر الإنسان، بل تتعداه إلى مستقبله في ما وراء هذه الحياة وهي تجمع بين عنصر المادة وعنصر الروح وتحقق صلاح الفرد وخير الجماعة وتطمئن نفوس الأمة وتعانق الأخوة الإنسانية، ذلك لأنها دعوة إنسانية روحية خيرة ومن أعظم مقاصدها المقاصد الآتية:

١ ـ الإيمان بالله:

دلت الآيات القرآنية على إدراك وجود الله بالتأمل في آثار صنعه إذ إن لكل مصنوع صانعاً ولكل مخلوق خالقاً، ولكل مبدع مبدعاً، فهذا الكون العظيم يخبر من أصغر شيء فيه من الذرة ونواتها وكهاربها إلى المجموعات الشمسية العظيمة فإنه يسير بنظام محكم، كما أن قوانينه تتحدث بأن قوة غير محددة هي التي خلقتها فلا الصدفة العمياء ولا الطبيعة الخرساء بقادرة على هذا الإبداع العظيم والخلق السوي لأن الطبيعة لا تخلق نفسها ولأن الصدفة لا تتكرر تكراراً مطرداً، وعجائب الكون تتكرر بالحياة في كل لحظة وبالتشابه فيما بينها فهذه الذرة الصغيرة التي تدور كهاربها حول نواتها في اتساق محكم بالسلب والإيجاب في انجذاب متزن تشبه ما يدور في فلك المجموعات الشمسية من كواكب حول شموسها فالله تعالى يتجلى في

مخلوقاته صغيرها وكبيرها حيها وجامدها متحركها وساكنها ويعبر القرآن الكريم عن هذا المضمون في أسلوب مقنع ممتع فيقول: ﴿**وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم**﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**﴾[3].

ولجلاء مبدأ الوجود الإلهي فإن عقول العرب على ضلالها في جاهليتها أقرت بهذا المبدأ ولم تنحرف إلا في التوحيد، والقرآن يصور ذلك فيقول: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم**﴾[4].

ويقول أيضاً: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون**﴾[5].

إن الدعوة الإسلامية جاءت لتقرر حقيقة وحدانية الله بعد تأكيد حقيقة وجود الله والوحدانية حقيقة تدل عليها الآيات الكونية والنظر العقلي والإيمان بوحدانية الله أساس البناء العقائدي لكل الرسالات الإلهية، فما بعث الله نبياً إلا بدعوة الوحدانية وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وإن هذا الكون بمخلوقاته ونواميسه ليس له إلا إله واحد يسيره ويهيمن عليه والكل خاضع له مسبح بحمده، وقد تضمن القرآن الكريم هذه المعاني ومنها قوله تعالى: ﴿**قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه**﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

وقال أيضاً: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[1].

وحين بعث الله محمداً ﷺ إلى الناس كافة وجدهم يعبدون آلهة من دون الله فمنهم من كان يعبد الأوثان ومنهم من عبد النار والكواكب والحيوان، وراعه ما كان عليه أهل الكتاب من انحراف عن الدين إذ رفعوا الأنبياء إلى مصاف الآلهة قال تعالى في كتابه العزيز منكراً عليهم فعلهم هذا: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾[2].

وإزاء هذا الفساد الذي عم البشرية، جاء القرآن الكريم مقرراً وحدانية الله في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾[3] وقال أيضاً: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾[4] وجاء في سورة الجن ما يقرر مبدأ الوحدانية في قوله تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً﴾[5]، كما أبطل القرآن زعم النصارى بأن المسيح ابن الله موضحاً لهم أنهم ضلوا، ولم يتبعوا ما جاء به عيسى فقال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾[6].

وفي آية أخرى وجه سبحانه وتعالى سؤالاً لعيسى يقيم الحجة عليهم بسؤاله إياه وهو أعلم به إن كان قد ادعى الألوهية كما زعم قومه فقال: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾، ثم أورد بعد ذلك رد عيسى عليه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٥) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٧.

السلام وإيمانه بوحدانية الله ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾[1]. كما أنحى القرآن باللائمة على المشركين عبدة الأصنام لجهلهم وضلال عقولهم وأقام لهم الأدلة العقلية والحسية التي تدل على وحدانية الله قال تعالى: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾[3] وأنكر عليهم إشراكهم مقرراً حقيقة الوحدانية التي عموا عنها فقال: ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾[4]، وبين أنهم لا يعتمدون على حجة بل يعتقدون بالهدى والشك ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾[5].

ولقد ناقش القرآن الكريم الملحدين مناقشة عقلية مؤكداً لهم أن هذا الكون لا يستقيم أمره إذا تعددت الآلهة فيه فقال تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[6].

ومن ثمرات هذا التوحيد أن المسلم يلجأ إلى الله في جميع أحواله وهو خضوع ينفي عما سواه جلب منفعة أو دفع مضرة، وبذلك يعتز المسلم بربه ولا يذل لبشر مهما يكن جاهه أو منصبه، وفي هذا الصدد يربي القرآن المسلمين على مبدأ الإخلاص في العبادة لله والاعتماد عليه ويحذرهم من اتخاذ زلفى تقربهم منه.

وقد جمع القرآن الكريم بين صفة الوجود والوحدانية في غير آية لأنه لا إيمان

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٦، ٦٧.
(٣) سورة الصافات الآيتان: ٩٥، ٩٦.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٣٩.
(٥) سورة النجم، الآية: ٢٣.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.

لمن يقر بالوجود ويشرك في الوحدانية ولن يعتقد بالوحدانية من أنكر وجود المتصف بها وهو الخالق قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1] وقال أيضاً: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾[2].

فالوجود والوحدانية من مقاصد الدعوة الإسلامية، بل هي المقصد الأساسي الذي تبنى عليه بقية المقاصد قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[3].

٢ ـ الإيمان بالبعث والجزاء:

إن الإيمان بالبعث بعد الموت ضرورة اقتضتها حكمة الله لتحقيق العدل بين الناس، فمن قدم خيراً فجزاؤه خير ومن فعل غير ذلك عوقب عليه فهو ركن من أركان الإيمان من كفر به لا يعد مؤمناً يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾[4]، فمن لم يؤمن بالبعث فقد ضل سواء السبيل.

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾[5].

وقد رد القرآن بالحجة الدامغة على من كفر بالبعث، روى الواحدي(*) في أسباب النزول أن أبيّ بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى الله

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(*) علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، من أشهر كتبه البسيط والوسيط والوجيز في التفسير وأسباب النزول ـ توفي بنيسابور سنة ٤٦٨ هـ ـ طبقات المفسرين ج ١ ص ٣٩٤.

يحيي هذا بعد ما قد رمّ قال: نعم ويبعثك ويدخلك النار[1].

فنزل قوله تعالى: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**﴾[2].

ويصور القرآن حقيقة البعث في حياة نبات الأرض الذي كان ميتاً، ثم صار نامياً ثم يعود بعد ذلك إلى الموت وعقد مشابهة بينه وبين كائن حي آخر وهو الإنسان وكما لا يستحيل إماتة الزرع بعد إحيائه وإحياؤه بعد إماتته فكذلك الإنسان ﴿**يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج**﴾[3].

ومما لا شك فيه أن العدل الإلهي يأبى التسوية بين المؤمن والكافر والبر والفاجر قال تعالى: ﴿**أم نجعل المتقين كالفجار**﴾[4].

ومن مقاصد الدعوة أن تبين للناس أن هناك يوماً للحساب سيكون بعد أن يحشر الناس من قبورهم ليتقرر مصيرهم بناء على ما قدمه كل منهم في الدنيا[5].

ولقد بعث الإيمان باليوم الآخر في قلوب المسلمين شجاعة فائقة وحنيناً غريباً للموت واستهانة نادرة بالحياة فتمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي العين، فقد روي أن الرسول ﷺ قال يوم بدر قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: بخ بخ فقال رسول الله: ما يحملك على هذا القول فقال عمير: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من

---

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ٢٤٦ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٥.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٨.

(٥) الإسلام كما ينبغي أن نعرفه، محمد شامة ص ١٣٦ ـ ط ١ مكتبة وهبه ـ القاهرة ١٩٨٣.

أهلها فقال إنك من أهلها فأخرج عمير تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من تمر ثم قاتل المشركين حتى استشهد[1].

ومن مقاصد هذه الدعوة أيضاً الإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾[2].

٣ ـ الأخـــلاق:

عرف الغزالي الأخلاق بأنها هيئة في النفس راسخة تصدر منها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[3]، ومعنى ذلك أنها انفعال الظاهر بحركة الباطن وإرادته وهذا ما يجعلها مقصداً من مقاصد الدعوة وتظهر أهمية الأخلاق في الإسلام بثناء القرآن على النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[4] ويقول الرسول الكريم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[5].

إن الأخلاق هي الجانب التطبيقي للمسلم في سائر علاقاته ومدى تأثير الدين في المسلم يظهر جلياً في سلوكه وما شرعت العبادات في الإسلام إلا لتربية روح المسلم وجعله يتجنب الرذائل ويسمو بروحه إلى مراتب الصادقين والأنبياء، فالصلاة مثلاً شرعت في الإسلام ومن أهم أهدافها تربية المسلم تربية مثالية قال تعالى: ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[6] والزكاة تطهير لنفوس المسلمين ورباط اجتماعي بين الغني والفقير لتكوين المجتمع الإسلامي المتين قال تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[7].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي ـ ص ١٥٥ ـ دار القلم الكويت ـ ١٩٦٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.
(٣) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ج ٣، ص ٦٤ ـ مكتبة صبيح وأولاده ـ القاهرة.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤.
(٥) الموطأ، الإمام مالك ـ كتاب الجامع ص ٥٠٤.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

والصوم مدرسة يشعر من خلالها المسلم بضرورة مد يد المساعدة لأخيه حين يتذوق ويلات الجوع والعطش، والحج أعمال كلها خلق عظيم بالتخلي عن الهوى والشهوة قال تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾[1].

ولقد بعث الرسول الكريم ليتمم مكارم الأخلاق وكان هذا الأمر على رأس اهتماماته عند بدء الرسالة وقد صور جعفر بن أبي طالب رئيس أول فريق من المهاجرين المسلمين حين عرّف الإسلام للنجاشي ملك الحبشة فقال: «لقد طلب إلينا رسول الله أن نتخلى عن أصنامنا ونعبد الله الإله الأوحد، وأمرنا بقول الصدق والإيفاء بالعهد والإحسان إلى الوالدين والجيران، وتجنب الأذى وحقن دماء الأبرياء وعدم الكذب وعدم أكل أموال اليتامى»[2].

وتقرر السنة المطهرة حرص النبي ﷺ على تهذيب أخلاق المسلمين من ذلك ما رواه أبو سعيد رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق»[3].

٤ ـ حفظ الكرامة الإنسانية:

من مقاصد الدعوة أن الإنسان في الإسلام هو ذلك المخلوق المكلف المسؤول، ذلك أنه في الإسلام دون غيره من الأديان لا يؤخذ واحد بوزر آخر ولا أمة بخطيئة أمة سبقتها ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[4] وقال تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾[5]. والدعوة تنظر إلى الإنسان على أنه أكرم الخلائق في السماء والأرض قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

---

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(١) إنسانية الإسلام، ص ٥٩.

(٢) سبيل السلام، الصنعاني ج ٤، ص ١٥٨٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤١.

(٤) سورة الطور، الآية: ٢١٠.

على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[1].

ومن مقاصد الدعوة أيضاً الإيمان بوحدة النوع البشري في أصله ومصيره، وعليه يبنى مبدأ العدل قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾**[2].

وبهذا المبدأ ينتفي مرض الميز العنصري إذ لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى يقول تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[3].

ويحقق في الوقت نفسه مبدأ المؤاخاة شرط الحياة الاجتماعية والسياسية في الإسلام إذ تبنى الحياة الاجتماعية على أن الفرد هو مرآة الأمة، وفي ضوء هذه الأممية يبنى مبدأ الشورى في الإسلام وبهذا المبدأ يزول التناقض بين الفرد والمجتمع حيث يصبح كلاهما غاية في حد ذاته على عكس المجتمع الرأسمالي الذي يكون فيه المجتمع وسيلة من أجل إسعاد الفرد، وعلى عكس المجتمع الماركسي الذي يكون فيه الفرد وسيلة لإسعاد المجتمع[4].

---

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٦) سورة النساء، الآية: ١.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) تأملات في بناء المجتمع الإسلامي، محمد عريبي ص ٤٦ ـ ط ٢ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس ١٩٩٠ م.

الفصـــل السابـع

واجب إبلاغ الدعوة

أراد الله للإسلام أن يكون آخر الأديان وأراد لمحمد أن يكون خاتم الرسل والأنبياء، وأمر الناس باتباع هذا الدين والاقتداء بذلك النبي ما بلغتهم الدعوة وحيث إنه لا تكليف من غير إعلام ولا ثواب ولا عقاب من غير علم بالرسالة والدعوة إليها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[1].

فلما كان الإسلام ديناً عاماً خالداً يخاطب الأجيال كلها إلى يوم القيامة، اقتضى ذلك وجود دعاة معلمين ينتقلون بين الأمصار ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف وإن الله أرحم بعباده من أن يتركهم من بعد رسوله بوراً لا هادي لهم ولا داعي للحق يدعوهم إليه إذ العقول وحدها لا تكفي في الهداية، وقد تاهت الأفهام وضلت العقول تحت لجاجة الأهواء والشهوات وإن أهمية إبلاغ الدعوة تأتي من جانبين من جانب الناس حيث مصلحتهم وسعادتهم تدعو إلى هذا التبليغ، ومن جانب الدعوة لأن طبيعتها الحركة الهادفة للوصول إلى كل مكان في الوجود لذلك كان تكليف النبي ﷺ بتبليغ الدعوة تكليفاً لأمته قال تعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾[2].

فهذه الآية توضح أن دعوة المؤمنين إلى الله علامة من علامات اتباع النبي،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

وأنه من تخاذل عنها لا يعد تابعاً له وقد جعل الله المسلمين شهداء على الناس وجعل الرسول عليهم شهيداً وهذه الشهادة تقتضي دعوتهم إلى الحق يقول تعالى: **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[1] ولقد توعد الله الذين يكتمون ما أنزل من علم الكتاب، وأنزل بهم اللعنة لأنهم تهاونوا في إظهار الحق والدعوة إليه فقال تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾**[2].

ولذلك وجب أن يستمر الدعاة في الدعوة لدين الإسلام ولا يتكلوا على وجود بعض المظاهر في اتجاه الخير لأن الشيطان دائب في الإفساد، ولقد كثر عدد المعارضين للدعوة وتعددت وسائلهم وعظمت إمكانياتهم وفي هذا المجال نسوق ما أورده الشيخ محمد الخضر حيث يقول: «ولا تنس أن المضلين المخادعين في هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية ما لم يتهيأ لغيرهم، فمن نواد تفتح وصحف تنشر وجمعيات تعقد وأموال تنفق»[3]. وقد لبس إبليس على بعض المتعبدين فيرى منكراً فلا يغيره ويتكاسل فلا يأمر بمعروف وحجته في ذلك أنه يأمر بالمعروف وينهى من قد صلح، وهذا خطأ لأنه يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو كانت تلك المعصية فيه، بل وينبغي عليه أن ينزه نفسه ليكون إنكاره مؤثراً»[4].

ولقد توهم بعض الناس أنه لا تكليف بتبليغ الدعوة، واستندوا في توهمهم هذا إلى تفسير خاطىء لقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾**[5].

ولقد حدث الظن بتفسير هذه الآية في عهد النبي ﷺ أخرج الترمذي عن أبي أمية الشعبانيّ قال: سألت عنها أبا ثعلبة الخشني فقال لي سألت عنها خبيراً لقد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٣) الدعوة إلى الإصلاح، ص ١٠.
(٤) تلبيس إبليس، ابن الجوزي ص ١٧٢ ـ دار الفكر ـ الأردن.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام»[1]، وكذلك حصل الأمر نفسه في عهد أبي بكر الصديق إذ تأول بعض الناس سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسمع أبو بكر بذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية عليكم أنفسكم وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يوشك الله أن يعمهم بعقابه، وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»[2].

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: إنها أي هذه الآية ليست لي ولأصحابي لأن رسول الله ﷺ قال: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم»[3]. وما زال الناس يؤولون هذه الآية على غير تأويلها فكم من ظالم ألقيت عليه النصيحة فأجاب عليكم أنفسكم وكم من جاهل بُصّر بحكم فقال: لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم وكم من واعظ عالم كتم علمه لأنه يواجه بتلك الإجابة التي لم تصدر عن قلب خاشع ولا عن لسان ذاكر، بل صدرت من قلب فيه دخن النفاق وعن لسان فيه زيف الباطل وبذلك يكون معنى هذه الآية الذي أجمعت عليه التفاسير إنكم إذا استقمتم كما أمرتم وقضيتم الواجبات التي من جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يضركم من اشتد هواه به وتطوح به في واد من الغواية.

وكما أن الله أمر نبيه بأن يبلغ دعوة الله ولا شأن له بعد ذلك باهتداء السامع أو إعراضه، فذلك أمر موكول إلى الله وإلى قلب ذلك المدعو يقول تعالى: ﴿**فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب**﴾[4] ويقول أيضاً: ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله**

---

(١) سنن الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ ج ٥، ص ٢٥٧.
(٢) سنن الترمذي ـ كتاب تفسير القرآن ـ ج ٥، ص ٢٥٢، تفسير التحرير والتنوير ج ٧، ص ٧٨.
(٣) نيل المرام بتفسير آيات الأحكام، محمد صديق خان ص ٢٤٢ ـ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٤٠.

يهدي من يشاء﴾[1] فها هو يأمر المؤمنين بمثل ما يأمر به الرسول إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً فعلى المؤمن أن يدعو الناس آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، فإن يستجب له فلا عليه بعد ذلك من وزر كما أن إعراض المعارضين يجب ألا يكون محبطاً ليقين الداعية فيضعف إيمانه أو تخور عزيمته بسبب إعراض من دعاهم إلى الحق.

وبذلك يزول الوهم القائل بأن هذه الآية رخصة للمسلمين في ترك الدعوة إلى الخير لأن واجب تبليغ الدعوة مثبت بأدلة طفحت بها الشريعة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[2].

تؤكد هذه الآية أن المسلمين خوطبوا بأن يكونوا دعاة إلى الخير ومعنى الدعاء إلى الخير الدعوة إلى الإسلام وبث دعوة النبي ﷺ، فإن الخير اسم يجمع خصال الإسلام ففي حديث حذيفة بن اليمان قال قلت يا رسول الله «إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر»[3].

وقال تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[4].

جاء في تفسير هذه الآية أنها تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم ويكونون هداة لغيرهم[5].

والإنذار هو الإخبار بما يتوقع من شر، والمراد من هذا الإنذار من المهلكات في الآخرة فهو الموعظة والدعوة إلى الدين وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير الوارد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٣) التحرير والتنوير، ج ٤، ص ٤٠.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج ١١، ص ٧٨ ـ دار المعرفة ـ بيروت.

في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾[1] لأن الإنذار أهم والتخلية مقدمة على التعلية ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده[2].

وقوله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾[3].

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: هذا أمري وسنتي ومنهاجي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني قال: وحق والله على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة وينهى عن معاصي الله[4] وهذه الآية توضح أن دعوة المؤمنين إلى الله علامة على اتباع النبي ﷺ، وأنه من تخاذل عنها فلا يعد تابعاً للنبي.

وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[5].

الآية تربط بين الدعوة إلى الله وصدور هذه الدعوة من داعية صالح في عمله مستقيم في سلوكه بإقامة العبادة لله وإخلاص قلبه لربه فيما يدعو إليه وفيما يعمله من الصالحات، فكأن القرآن يقرر لنا في هذه الآية أن المتعبد الغافل عن دعوته لغيره إلى الإصلاح والخير ناقص العبادة ليس في درجة فضلى ويدلنا على أن الداعية يجب أن يكون عابداً مخلصاً تقياً.

وها هو النبي ﷺ يوضح العلاقة المتأصلة بين عبادة المؤمن ودعوته إلى الخير، فقد تضمنت الأحاديث النبوية ما يدل على الأمر بالدعوة ونقل أقوال النبي إلى الأجيال من بعده حتى تعم هدايته.

١ ـ روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: «نضر الله امرأً سمع مقالتي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٦٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.
(٤) تفسير الطبري ج ١٣، ص ٥٢ ـ ط دار المعرفة ـ بيروت.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

ووعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم:

«إخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن الدعوة تحيط من ورائهم»[1].

٢ ـ قال ﷺ: «تسمعون ويُسمع منكم ويُسمع ممن يسمع منكم»[2].

٣ ـ قال ﷺ: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»[3].

قال النبي ﷺ هذه العبارة في خطبته الجامعة خطبة الوداع أمام جموع كثيرة من الصحابة يحثهم على تسلم أمانة إبلاغ تعاليم الإسلام جميعها من بعده.

٤ ـ روى قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله ولو آية فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله»[4].

٥ ـ قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[5].

وبنظرة فاحصة إلى الدعوة نجد لها جناحين لا تقوم إلا بهما ولا تؤتي ثمارها إذا انفصل أحدهما عن الآخر وهما الداعية الذي يبلغ التعاليم والمخاطب بتلك التعاليم سواء كان مستجيباً لها حين الخطاب أو مرجئاً استجابته إلى وقت آخر يكون قد تهيأ فيه عقله وقلبه بعد تأمل وتفكر، لذلك كان لزاماً على الداعية أن يراعي أحوال من يخاطب ومشاعر وطبائع من يدعو وهذا ما نريد أن نوضحه في الباب القادم.

* * *

(١) سنن الترمذي ـ كتاب العلم ـ باب ٧، ج ٥، ص ٣٤.

(٢) مختصر سنن أبي داود ـ الحافظ المنذري ـ كتاب العلم ـ باب فضل نشر العلم ج ٥، ص ٢٥٣، دار المعرفة.

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب تبليغ الشاهد الغائب ج ١، ص ٣٧.

(٤) عمدة القارىء، شرح صحيح البخاري، ج ١٦، ص ٤٥.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٢، ص ٢١، ٢٢.

الباب الثالث

مُرَاعَاةُ حَالِ الْمُخَاطَبِينَ بِالدَّعْوَةِ

لما كانت الدعوة إبلاغ وإيصال لمبادىء يعتقدها الداعية ويريد أن يعتقدها المخاطبون بها، أشبهت البلاغة وكان الداعية كالأديب البليغ الفصيح الذي يريد أن يقنع السامعين ويؤثر في نفوسهم بما يلقيه من البيان الحسن، فنستطيع القول إن كل داعية يلزم فيه أن يكون بليغاً يراعي مقتضى أحوال المدعوين فلا يلقي عليهم من الأفكار والأسس ما ينفرهم من دعوته كأنه يتصادم مع شعور المدعو أو طبيعة تفكيره أو نظامه الاجتماعي أو أن يأخذه من أول الأمر بما لا يحتمل ويشحنه بجميع الأفكار والمبادىء الجديدة فيقلب عليه توازنه الفكري والنفسي ويوقعه في حيرة واضطراب، فالنفوس لا تساق سوقاً ولا تشحن شحناً ولكنها تستأنس بالجديد استئناساً يقول تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**﴾[1] وفي دعاء المؤمنين الذين علمهم الله إياه ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾[2].

من أجل ذلك نرى أن الإسلام يراعي أحوال من يدعوهم إليه من النواحي الشعورية والعقلية والاجتماعية ويحث أتباعه الذين يمسكون بزمام الدعوة على تقريب دعوتهم من نفوس وعقول المدعوين وملاءمتها لطبيعة حياتهم الاجتماعية، وسنورد الشواهد التي تدل على ذلك من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وسوف لن نقتصر على الدعوة الإسلامية بعد البعثة المحمدية، بل سنتأمل في أسلوب الدعوة على لسان الرسل السابقين كما حكى عنها القرآن الكريم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الفصـــل الأول

مراعاة الحالة الشعورية

المتأمل في محاورة الرسل مع أممهم يجد اهتمامهم بعدم إيلام مشاعر من يدعونهم إلى الإيمان فلا يأخذونهم بالترهيب قبل الترغيب ولا بالشدة قبل اللين، ولا بالمواجهة قبل عرض الدعوة لأن الله علّم رسله المنهج السوي في التوافق بين الدعوة ونفس المدعو يقول تعالى على لسان نوح مخاطباً قومه على هدى ذلك المنهج: **﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون﴾**[1]. وعندما هاجموه ووصفوه بالضلالة أجاب بكلام لين حسن يخالف كلامهم لعلهم يتذكرون ويرجعون عن غوايتهم **﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**[2]، ولم يسأم من حوارهم ولم يعجل عليهم يطلب إهلاكهم بل إنه جادلهم حتى ملوا جداله ولان معهم حتى توعدوه بالرجم **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[3] **﴿قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾**[4].

---

(١) سورة نوح، الآيات: ٢، ٣، ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٦١، ٦٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٣٢.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.

وعلى هذا النهج القويم سار هود عليه السلام الذي تلطف مع قومه في دعوته ولكنهم انقلبوا عليه ولم يؤمن معه إلا قليل وقال له الكافرون بلسان الأذى والوعيد: ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون**﴾[1]، وكانوا من قبل قد وصفوه بالسفاهة وهو النبي الكريم فلم يسفه أحلامهم ولم يحقر أنفسهم بل دافع عن نفسه يدفع السفه عن عقله وقلبه ﴿**إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين**﴾[2] وانظر إلى شعيب عليه السلام الذي كان يلقب بخطيب الأنبياء لما يطيل من مجادلة قومه بالتي هي أحسن لعلهم يتقون يرفق بالمدعوين ويأمرهم بأحكام خفيفة عليهم نافعة لهم في دنياهم وأخراهم، ولكنهم لجوا في العناد والمكابرة وادعوا بأنهم لا يفهمون من مقالته كثيراً مما ألقاه عليهم وهددوه بالرجم ﴿**قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز**﴾[3].

وتصارع فريق من المؤمنين مع الكثرة الكافرة من قوم صالح عليه السلام حتى حكم بينهم الله بالعذاب ولم يتعصب صالح لقومه من المؤمنين، بل استمر في دعوتهم جميعاً إلى الخير حتى أخذ الكافرين العذاب ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون**﴾[4]. وهذا موسى عليه السلام يمده الله تعالى بالمعجزات ويعده بالمؤازرة والنصر على فرعون وملئه ويشد عضده بأخيه هارون، ومع ذلك يأمرهم باللين في مخاطبة ذلك الظالم المستبد ﴿**اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾[5]، ويعلم الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بما عمله رسله السابقون فيأمر بالعفو والحلم مع

---

(١) سورة هود، الآيات: ٥٣، ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٦٦، ٦٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٩١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٥، ٧٦.

(٥) سورة طه، الآية: ٤٣، ٤٤.

الكفار وإن آذوه وحقروه ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[1]، ويمد الداعية الأول بالمدد الروحي فيملأ نفسه بالثقة والسكينة والطمأنينة حتى يتصدى للأذى النفسي الذي يهاجمه به الكفار والمعاندون، ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[2]. ويلفت نظره وقلبه إلى صبر الرسل السابقين حتى يتأسى بهم ويتفوق عليهم في مجاهدة نفسه وتثبيت قلبه أمام موجات الإيلام المتدافعة من الكفار فيقول تعالى: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[3].

فكان ﷺ لا يشتد على المدعوين من الكفار الذين لم تخشع قلوبهم لذكر الله بل تزداد قساوة وإعراضاً ويجالسهم منفردين ومجتمعين يتحين الفرصة لتجديد دعائهم إلى الإيمان، حتى أنه انصرف إليهم ذات يوم بكل شعوره وترك ابن أم مكتوم فنزل القرآن يعاتبه على مبالغته في الحرص على إيمانهم ومجاوزته الحد في التلطف معهم فنزلت ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى...﴾.

وكان ﷺ قبل بعثته يعيش بين صناديد قريش الذين يؤذونه ويسخرون منه ويعتدون عليه في صلاته حتى أن عقبة بن أبي معيط يخنقه في صلاته فيأتي أبو بكر فيخلصه ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ومع ذلك لا يتوانى في دعوتهم لأن الله علمه أن النفوس الضالة قد تهتدي وأن القلوب القاسية قد تلين إذا ما وجدت اللسان الصادق واليد الرقيقة والجانب اللين والداعية الصابر، وحسبك برسول الله قدوة في ذلك كله، كان يحاول أن يسمعهم القرآن لعله يدخل إلى قلوبهم وإن لم يتمكن من إسماعهم بنفسه حث أتباعه على ذلك وقد نجحت الدعوة في وصولها إلى قلوب بعض المعاندين بالقرآن، كما وصل القرآن إلى قلب عمر بن الخطاب فآمن ووصل إلى قلب حمزة بن عبد المطلب فآمن ولكنه وصل إلى أسماع

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٧، ٩٨، ٩٩.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

الوليد وأبي جهل والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر فأعرضوا وقال بعضهم إنه سحر وقال بعضهم إنه شعر وقال آخرون بأنه أساطير الأولين، وكان ﷺ بعد هجرته وهو في منعة من المؤمنين المهاجرين والذين آووه من الأنصار ولكنه لا يلجأ إلى القوة في إقرار الحق وإبلاغ الوحي وإنما هو الرفق والعفو والإعراض عن المنافقين واليهود، يتعرض في المدينة بقلبه ولا يمد إليهم يده لكي لا يخرب البناء ولا ينفر النفوس وكان ﷺ وهو في عاصمة النبوة يلتقي مع الوافدين عليها من التجار والزوار الذي ما جاؤوا لمقابلته بل لغرض يخرج عن نطاق الدعوة، ولكنه يجرهم إلى طريق الدعوة برحمته وأناته ورفقه. كان بالمدينة تاجر من ربيعة يتجول في شوارعها ذات يوم وكان يدعى منقذ بن حيان التقى بالنبي ﷺ على غير موعد فسأله عن أشراف قومه ثم أخذ النبي ﷺ يعددهم له فانشرح صدر الرجل وتعجب من معرفة النبي لقومه فأنصت للوحي ثم أسلم ورجع إلى قومه بدعوة النبي ﷺ، ولكنه لم يجهر بها في بادىء الأمر ومكث في بيته يصلي فأثارت صلاته زوجته فأخبرت أباها المنذر بن عائذ بما رأت من زوجها فجاء إلى صهره يستنبئه فأخبره بالدعوة[1] فأسلم وأعلن إسلامه فتبعه قومه بنو عبد القيس وكان زعيمهم، ثم ساروا إلى المدينة في وفد يربو على الأربعين وكانوا من أهل البحرين وقابلوا النبي ﷺ الذي ثبت فيهم المنذر زعيماً عليهم ووصفه بخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة حتى يلتف حوله أصحابه ولا يعصوا له أمراً فهو يمدحه لما يعلم من أثر ذلك المدح في وحدة الجماعة والتئام شملها فهو يعرف كيف يجمع القلوب وانظر إليه ﷺ عندما يستقبل الوافدين عليه للتزود من زاد دعوته ثم يلمح منهم اشتياقاً إلى العودة كيف يبادرهم فيأمرهم بالرجوع إلى أهلهم قبل أن يسألوه عن ذلك. روى البخاري بسنده عن مالك بن الحويرث[2] قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شيبة متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة»، وكان رسول الله ﷺ رفيقاً فلما ظن أننا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه فقال: «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم وذكر أشياء أحفظها أو لا

---

(١) فتح المنعم، لموسى شاهين لاشين ج ١، ص ٩١، ط ١، دار التأليف، ١٩٦٩.
(٢) البخاري، كتاب الأذان ج ١، ص ١٦٢.

أحفظها، وصلوا كما رأيتموني أصلي فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم»[1]. وهو عندما ألقى إليهم أحكام الإسلام لم يكلفهم بأوامر ونواهي كثيرة ينسي بعضها بعضاً وتثقل كاهلهم فيسأموها، بل حثهم على الصلاة بعد أمرهم بأشياء أخرى لا تبلغ أهمية فريضة الصلاة حتى أن الراوي ينسى بعضها أحياناً فالمرشد والمعلم والداعية على كل واحد منهم أن يلتزم الحكمة فلا يثقل على المدعوين فيدفعهم إلى الامتثال دفعاً ولا يزجرهم عن المنهيات زجراً منفراً، بل يدعوهم بالحكمة ويصرفهم عن المنهيات بالتي هي أحسن فما دخل الرفق في شيء إلا زانه وما خلا من شيء إلا شانه.

وانظر إليه كيف يراعي الشعور المتفشي في قلب الرجل كبير السن الذي يتأذى إذا ما قدم عليه من هو أصغر منه في شؤون الدنيا إن لم يكن أعلم منه بالأمور، وحرصاً من النبي ﷺ ألا يتأذى الكبير بذلك في أعظم شأن من شؤون الدين وهو الإمامة فقد أمرهم أن يتقدمهم أكبرهم سناً للإمامة محافظة على الإلفة والمحبة بينهم ولكي لا يتحاسدوا ولا يتباغضوا، واستمع إلى عدي بن حاتم من أكرم العرب كيف يروي حديث لقائه برسول الله ﷺ الذي لم يعنفه على هروبه إلى الشام متنصراً يقول عدي: «فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها قلت في نفسي والله ما هذا بملك، ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليّ فقال اجلس على هذه قلت بل أنت تجلس عليها فقال بل أنت فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض[2].

هكذا يعامل الداعية الأوّل رجلاً فر من الإسلام إلى الشام ثم جاء مستطلعاً ولم يأت مسلماً، ولكن النبي ﷺ يتواضع معه ويكرمه ويتلطف معه حتى يدخل الإسلام إلى قلبه ولم يصدّ عنه ويعنفه عن هروبه وقد جاء إليه فقيراً حزيناً ثم يقول

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان ج ١، ص ١٦٢.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون ص ٣٥٥، دار إحياء التراث العربي.

عدي «ثم قال النبي: لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ قومه ـ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض منهم حتى لا يوجد من يأخذه». وهنا يستخدم النبي ﷺ أسلوب التبشير وإظهار المسرّة للمدعو وعلى الفور يسلم عدي «قال فأسلمت»[1].

وإذا أراد الداعية الأول ﷺ أمراً من المدعوين الذين استجابوا لدعوته ولم يكن ذلك الأمر مفروضاً عليهم خيّرهم في رفق لأنه يعلم أن نفوسهم قد تستجيب له منقادة مكرهة ولكنه يريدها أن تستجيب له عن طواعية حتى يبارك الله في الطاعة قال ﷺ وهو يستعد لغزوة بدر «أشيروا عليّ وإنما يريد الأنصار، فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار كأنك يا رسول الله تريدنا فقال: أجل قال: فامض يا نبي الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد»[2]. فهؤلاء يريد أن يفرض على الأنصار أمراً لم يعاهدوه عليه فقد عاهدوه على النصرة في المدينة ولم يعاهدوه على النصرة خارجها، فأراد أن يعرض عليهم أمر نصرته خارجها في غير إكراه وفي حياء وأدب فكان لهذا الأسلوب الرشيد أثر في نفوسهم بالاستجابة الصادقة المدعمة بالإرادة النافذة وهو الذي يعالج نفوس المدعوين عند الاختلاف والتنافس على الدنيا. يقول ابن سعد: فلما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله ﷺ قريشاً والعرب تكلموا في ذلك فقال رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ قالوا: رضينا يا رسول الله بك حظاً وقسماً فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار[3].

فتحوّل الطمع إلى قناعة وصارت المنافسة تأييداً بتلك الكلمات الصادقات الطيبات ويعالج نفس صنديد من صناديد قريش منكسر الخاطر محطم الفؤاد بسبب هزيمته واندحار عقيدته أمام حسن وعقيدة الإسلام، وبتلك المعالجة

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون ص ٣٥٦، دار إحياء التراث العربي.
(٢) غزوات الرسول وسراياه، لابن سعد ص ١٤، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١.
(٣) سنن ابن ماجة، المقدمة ج ١، ص ٥٨.

الحكيمة يتحوّل الفؤاد المحطم إلى قلب مؤمن مطمئن بالإيمان حيث جعل النبي ﷺ لأبي سفيان أن من دخل داره فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن فكأن الداخل إلى دار أبي سفيان داخل إلى بيته، وكأن الرسول يقول لأبي سفيان ما زال بمقدورك أن تكون زعيماً في الإسلام كما كنت زعيماً في الكفر.

فالإسلام يقوي النفوس ولا يضعفها وينمي المواهب القيادية ولا يقتلها، ولكن يهذب مسارها ويوجهها إلى غاية خيّرة لا إلى نزوة مهلكة وإذا ما انهزم المدعو أو امتحن ببلاء فكان البلاء أكبر منه، فإن الداعية عليه أن يقوي من عزيمة المدعو بالصبر وألا يحطمها بالتعنيف والزجر وشدة المحاسبة فيعلمنا النبي ﷺ درساً في تثبيت القلوب إذا انخذلت أمام النوازل الجسيمة والحوادث الأليمة فإنه ندب جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مجاهد إلى مؤتة ولكن الجيش يقابل بمائة ألف ويقتل قواده الثلاثة، زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وجعفر بن أبي طالب، ويعود الجيش وقد فقد كثيراً من القتلى وأثخن كثير من جنوده بالجراح يقوده خالد بن الوليد»، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف[1] فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون يا فرار أفررتم في سبيل الله فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله»[2].

فبحكمته ﷺ يحول الهزيمة إلى نصر قريب وبرفقه يحول القلوب المكلومة إلى قلوب منتصرة على ضعفها وعدوها **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾**[3].

وعندما يبعث النبي ﷺ الدعاة إلى مواطن الدعوة يزودهم بنصائحه وعلى رأسها الأمر بالرفق وأخذ العقول باللين والمسامحة. قال ابن إسحاق: «إن رسول الله ﷺ ـ حين بعث معاذاً ـ أوصاه وعهد إليه ثم قال له: «يسر ولا تعسر وبشّر ولا تنفر، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة

---

(١) مكان على مشارف المدينة.

(٢) غزوات الرسول وسراياه، ص ١٢٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[1]، وإذا ما أرسل سرية لقتال المشركين أمر قائده بأن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً قبل القتال حتى يترك للرفق محلاً وللدعوة مجالاً قال ابن إسحاق: «بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبل منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا في دين الله فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وبذلك أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا»[2].

ومن هنا نعلم كيف كان رسول الله ﷺ يربي رجالاً ليكونوا دعاة قبل أن يكونوا قواداً.

فخالد بن الوليد في هذه الحادثة كان مجاهداً بلسانه ينشر دعوة الحق، ولم يكن مجاهداً بسيفه يقطع رقاب الكفرة كما كان في مواقع أخرى ولا يترك النبي مراعاة حال نفسية المخاطب وهو يرسل الكتب إلى الملوك الذين تفصل بينه وبينهم بحار وفلوات، فلا يريد أن يقسو عليهم وهو المؤيد من السماء ولا يريد أن ينفرهم من دعوة الإسلام بالتخويف والإرهاب بل يختار لهم في مفتتح كتبه الألقاب التي تدخل إلى قلوبهم بسلام في غير مراء ولا باطل فيقول في مستهل خطابه إلى هرقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى»[3]، إن هرقل حقاً معظّم عند الروم ولكن كلمة عظيم الروم قد لا تصدر من داعية غير داعية الإسلام الأول فهو خاتم الأنبياء والمرسلين والمشرّف من الله بالرسالة وقائد المسلمين، ومع هذا لا تتألم نفسه بل تسر وهو ينادي على هرقل بهذا اللقب لعله أن يجنح إلى الإسلام، وهكذا يكون الدعاة مسالمين للقلوب مؤانسين للنفوس، لا يصدمونها بالدعوة صدماً ولا يكلفونها بالتعاليم عنتاً ومشقة

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٤.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٦٥.
(٣) صحيح مسلم، ج ١٢، ص ١٠٧.

فما أحوج دعاتنا اليوم إلى الرفق في غير ضعف وإلى المسالمة في غير خذلان وإلى الملاطفة في غير انحراف عن منهج الدعوة وأسسها، فإن الغلظة في الخطاب لا تكون إلا امتناعاً من المدعو وإن عرض الدعوة بالعنف والترهيب لا يزيد المدعو إلا بعداً عنها كيف تكون الشدة سبيلاً إلى دعوة الناس بتعاليم محلها الاعتقاد في القلب، فلو أسلموا ظاهراً لم يؤمنوا ببواطنهم ولو نطقت ألسنتهم لن تنقاد قلوبهم، فلن يكون إلا الرفق في دعوة عقدية كدعوة الإسلام وما يلجأ إليه من وسائل أخرى فيها عنف وجهاد لا يكون إلا من أجل إزالة العقبات التي تقف أمام الداعية والدعوة.

الفصـــل الثـاني

الحالـــة العقـليـــة

مراعاة الحالة العقلية:

الدعوة الإسلامية في توجهها إلى الناس تتلاءم مع التفاوت الطبيعي في التفكير الإنساني وتنسجم مع عقول الناس على اختلاف مستوياتهم، فهي لا تستخدم أسلوباً واحداً مع جميع الناس بل تخاطب الصغير الذي لم ينضج عقله بعد، بخلاف ما تخاطب به الكبير المدرك المجرب من أساليب وتعالج الأمة المتحضرة بغير ما تعالج به الأمة البدائية وتتوجه في خطابها إلى الأمة المسالمة بغير ما تتوجه به إلى الأمة المحاربة تبعاً لتفكير كل فرد ونمط كل أمة، فهي الدعوة العالمية الشاملة وإذا الأنبياء السابقون قد بعثوا إلى أمم بعينها في مكان محدود وعلى مستويات من التفكير تكاد تكون واحدة، فأمة نوح كانت تعبد الأصنام وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً، وأمة شعيب كانت تخسر الميزان والمكيال، وعاد كانوا يتكبرون على الله ويفسدون في الأرض وكذلك أمة صالح وقوم لوط اشتركوا في الانحراف عن السبيل يأتون الرجال ويذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم وقوم موسى يعبدون العجل ولا يعرفون الله ويقعون في التجسيم، وقوم عيسى حرفوا التوراة وأقبلوا على المادة وأهملوا القيم الروحية فإن دعوة الإسلام موجهة إلى الناس جميعاً على اختلاف عصورهم وطبائعهم ومستوى تفكيرهم وأنماط حياتهم مما يستلزم مراعاة نوعية خاصة من الخطاب تناسب كل جماعة تدعى إلى الإسلام فإن الإسلام أول ما ظهر على يد محمد ﷺ بالجزيرة كان داعيته الأول يقدّر أنه بعث في

قوم وإن قلّ نصيبهم من الحضارة، إلا أنهم يتمتعون بقدر عال من الفطنة ونفاذ البصيرة وصفاء الفطرة فالعربي يفهم باللمحة وتكفيه الإشارة ونبوغ العرب في الشعر والخطابة وسوقهم الأمثال التي تجمع الحكم في ألفاظ موجزة شاهد على ذلك حتى أنهم كانوا يتخاطبون بكتابات وتعريفات أشبه ما تكون برموز المخابرة من ذلك ما رواه صاحب بلوغ الأرب[1] من أن فزارياً ونميرياً كانا يتسايران في الطريق فقال الفزاري: غض لجام فرسك فرد عليه النميري إنها مكتوبة. أراد الفزاري تحقير النميري بأن يعرض له بيت جرير الذي يقول:

وغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وأراد النميري أن ينتقم لنفسه وقومه بالتعريض بالفزاري وقومه الذين قال فيهم الشاعر:

لا تأمنن فزارياً خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار

واختار كل واحد منهما كلمة واحدة من البيت المراد، فاختار الفزاري كلمة «غضّ» واختار النميري كلمة «واكتبها» في صيغة المفعول. إن قوماً بهذا القدر من الفطنة والذكاء لا بد أن يخاطبوا بأسلوب موجز فاللبيب تكفيه الإشارة، ومن أجل ذلك كان القرآن المكي الذي نزل قبل الهجرة في مخاطبة أهل مكة وما جاورهم ممن خلصت عروبتهم وفصحت لغتهم كان موجزاً مقيد الفواصل والمقاطع، ولكن عندما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة كانت سور القرآن مطنبة وآياته طوالاً ومتواصلة مفصلة لأنه يخاطب قوماً جعلتهم المدنية أقل فراسة وتفطناً لإشارات الكلام كما أثر فيهم الامتزاج باليهود فأضعفت عربيتهم فالقرآن الكريم عندما يزجر كفار قريش يستخدم معهم الأسلوب الموجز لأنهم يدركون الزجر من كلمات قليلة، ولذلك ترددت «كلا» في القرآن المكي ولم ترد في القرآن المدني يقول في تعنيف أبي جهل ﴿**كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة**﴾[2]. ويقول في تبكيت

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للألوسي، ج ١، ص ٢٢، المطبعة الرحمانية، نشر محمد الأثري، القاهرة، ١٩٢٤.

(٢) سورة العلق، الآية: ١٥، ١٦.

(٣) سورة يس، الآية: ٧٨.

أبي بن خلف ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾[٣] وتهجم مقاطع القرآن على الوليد بن المغيرة عنيفة موجزة في قوله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً﴾[١]، ولكنه وهو يخاطب أهل المدينة من اليهود والمنافقين يطيل معهم الخطاب فهم لا تكفيهم الإشارة ولا تغنيهم اللمحة ولا ينفع معهم الإيجاز لقصر عقولهم عن مفاصل القول ومحزات البيان يخاطب النبي ﷺ في شأنهم فيقول: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[٢].

ويتكلم عن أصحاب مسجد الضرار بإسهاب تتقابل فيه الجمل ويتعدد فيه الاستفهام الإنكاري لزيادة تأكيد المعنى في أذهان السامعين حتى يستشعروا الوعيد ويعرفوا المقصود ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسّس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٣].

ولأن اليهود لهم حيلهم التي يتسللون منها في الغدر والمكر فإن النبي ﷺ لم يترك لهم فرصة التحلل من المعاهدة التي أجريت بينه وبينهم فذكر في بند من بنودها ما نصه: «وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ»[٤]. وعندما يخاطب النبي ﷺ الملوك والأمراء في رسائله يخاطب كلاً منهم بما يفهمه من حال دينه ورأيه فإما يصحح له بعض معتقداته، وإما أن يشير إليه ويعلمه بأن الإسلام يمحوه ولا يقره ففي كتابه إلى النجاشي: «فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له»[٥].

---

(١) سورة المدثر، الآيات: من ١١ إلى ١٧.

(٢) سورة المنافقين، الآية: ٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٤) الرحيق المختوم للمباركفوري، ص ١٨٤، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٦.

(٥) الرحيق المختوم، ص ٣٣٧.

فصادفت هذه الكلمات قلباً انشرح لها وآمن بها لأنها توافقت مع عقل المدعو وتفكيره فصححت الانحراف الحاصل في عقيدته وأبقت على السليم القديم فرد عليه النجاشي بشهادة الإسلام: «فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً، إنه كما قلت»[1]، ولأن أهل الكتاب من النصارى قوم لهم أثارة من علم كاليهود إلا أنهم يختلفون عنهم في قلة المكر والغدر ولذلك فإن أكثر كتب النبي ﷺ المرسلة إلى ملوك وأمراء النصارى تذيل بقوله تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾[2]، فيدعوهم إلى المحاجة قبل المحاربة ويعرض عليهم الدعوة قبل الملحمة وها هو حاطب بن أبي بلتعة بعد أن سلم كتاب النبي ﷺ يحاوره بما لا يصادم عقله وبما يصحح رأيه ويقوده بمقدمات يؤمن بها إلى نتائج لا يؤمن بها فيقول: «إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به»[3]، فرد المقوقس رداً حسناً لما وجد من لين كلام حاطب وحسن خطاب محمد ﷺ فقال: «إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة»[4] وأناة النبي ﷺ في شأن الرد على كسرى بعد أن وصله كتاب النبي ﷺ ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز وعندما جاءه رجلان مبعوثان من باذان[5] يأمران النبي ﷺ بمصاحبتهما إلى كسرى أمرهما ﷺ أن يلاقياه غداً ولم يعنفهما فقامت ثورة كبيرة ضد كسرى وقتله ابنه

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٣٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.
(٣) الرحيق المختوم، ص ٣٣٩.
(٤) نفس المصدر السابق.
(٥) الرحيق المختوم، ص ٣٤١.

شيرويه وتولى الملك مكانه، وبعث إلى باذان باليمن فقال في كتابه «انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فكان صبر النبي ﷺ على الرجلين حتى تجلى الأمر، ومزق الله ملك كسرى سبباً في إسلام باذان ومن معه والنبي ﷺ يساير الأقوام على قدر عقولهم وعلى مقتضى أحوال بيئاتهم التي تربوا فيها وعلى نمط العادات التي ألفوها وإن لم يكن في ذلك أذى في الدين وإن كان فيه أذى لنفسه ﷺ رجاء أن يستجيبوا لدعوته، فقد قدم إليه أعراب بني تميم وكانوا قوماً غلاظاً جفاة فنادوا من خلف حجراته: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا فلم يمنعهم النبي ﷺ لعل تلك المفاخرة تكون سبباً في إسلامهم فسيجاريهم ثم يحتج عليهم فقال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل» فقام عطارد بن حاجب فقال: «فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدو مثل ما عدونا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا...»[1].

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قم فأجب الرجل في خطبته» فقام ثابت فقال: «الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه فقضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله» إلى أن قال: «فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوو رحمه أكرم الناس حسباً وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة حين دعاه رسول الله نحن فنحن أنصار الله ووزراء رسوله» فقام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

إلى آخر أبياته فرد عليه حسان وقد بعث إليه رسول الله ﷺ وعندما حضر قال له قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال فقام حسان فقال قصيدته التي مطلعها:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع[2]

فلما فرغ القوم أسلموا فجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

ثم نزل القرآن الكريم يلطف على قلب رسوله ﷺ أذاهم وإزعاجهم له بمناداتهم ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم**﴾[1].

وسر تذييل الآية الثانية بقوله تعالى والله غفور رحيم فتح لأبواب الخير أمام أولئك الأعراب الذين لا يعقلون كي يدخلوا إلى الإسلام فيغفر لهم ما قد سلف وقد دخلوا بحمد الله، وها هو النبي ﷺ يستقبل ضمام بن ثعلبة ممثلاً عن بني سعد بن بكر الذي أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ودخل المسجد ورسول الله جالس في أصحابه فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد؟ قال: نعم قال: يا ابن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك فلم يؤاخذه النبي ﷺ على غلظته لأنه أعرابي جلف بل جاراه في طبيعته وخاطبه على قدر تفكيره فقال ﷺ: «لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبل وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: اللهم نعم ثم جعل يسأله عن التوحيد ونبذ الأصنام والصلاة وفرائض الإسلام ثم قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف إلى بعيره راجعاً فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله لا أزيد ولا أنقص بل قال: «إن صدق ذو العقيصتين ـ الضفيرتين من الشعر ـ دخل الجنة ومقصد النبي ﷺ أن ضماماً وإن عزم الآن على أنه لا يزيد على تلك الفرائض إلا أنه عندما يتهذب بأحكام الإسلام سيأنس بها ويعمل بالنوافل والمتطوع به من الأعمال ولذلك يقول ابن عباس: فما سمعنا بواحد قدم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة»[2].

والداعية الأول يخاطب الصغار على قدر ما يفهمون، بل ويتواضع لهم ويشتري نفسه منهم عندما استوقفوه في الطريق وطلبوا منه أن يكون لهم جملاً كما كان للحسن والحسين فاشترى نفسه منهم بجوزات وهو الذي لم يعنف الأعرابي

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٤، ٥.

(٢) انظر تفصيل الخبر في خلاصة الأثر لأحمد محمد عساف، ص ٣٤٢.

الذي بال في المسجد لأن ذلك[1] الأعرابي يظن أن هذا العمل لا شيء فيه فنهى الصحابة عن تعنيفه وقال هريقوا عليه سجلاً من ماء.

وهو الذي زكى إيمان المرأة التي سئلت عن حقيقة الذات الإلهية فأشارت إلى السماء لأنها فهمت أن الله لكماله لا يكون إلا في مكان علوي مع أنه لا يحويه مكان جلّ وتعالى والنبي ﷺ لا ينكر على أهل المكر والخداع طبيعتهم التي جبلوا عليها، بل يصلح من شأنهم إن أسلموا بالإيمان فيحولهم من دهاة مكارين إلى حكماء صالحين كما فعل بعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، بل إنه لم يقتل المرأة اليهودية التي سمّت له ذراع الشاة عندما أحضرت فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك[2]. فقلت إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر فعفا عنها رسول الله ﷺ قدّر فيها طبعها وصدق منها حجتها التي أدلت بها على قدر عقلها الخادع وقلبها الغادر وماذا يستفيد داعية يدعو الناس جميعاً إلى دين خالد من قتل امرأة تريد أن تختبره أو تريد أن تنتقم لقومها منه فانكشفت؟

كان ﷺ يسير بسير الضعفاء إن سار معهم ويسير بسير الأقوياء إن سار معهم، وينزل منزلة الضعفاء إن خاطبهم ويتكلم بلغة قوية معتدلة إن خاطب الملوك يوجز إذا حدث بليغاً حكيماً ويشير إذا خاطب من لا يحب الكلام أو يكتفي بالإشارة ويطنب في غير ملل إذا علم أصحابه الأحكام، بل ويكرر القول لهم ثلاث مرات حتى يعوه ويحب أن يسمع القرآن من أصحابه حتى يتأكد في قلوبهم ويظهر في سلوكهم يسألهم فيجيبونه ويجيبهم إذا سألوه يفصل لهم ما استشكل عليهم ويجمل لهم ما وضح لديهم يريحهم إذا تعبوا وينشطهم إذا تثبطوا بين فعل العبادة وتركها إذا كان في الأمر خيار حتى يقبل العابد على العبادة راغباً وينصرف عنها المنصرف آملاً في الرجوع إليها إذا نشطت همته وفرغ من مشغلته ينادي عليهم المنادي من قبل رسول الله ﷺ وهم في طريقهم إلى فتح مكة: «من أحب أن يفطر فليفطر ومن أحب أن يصوم فليصم»[3] فالناس في دعوة الإسلام في حرية مطلقة

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي ج ٢، ص ٣٧٩.

(٢) خلاصة الأثر، ص ٣٦٤.

(٣) غزوات الرسول وسراياه، ص ١٣٥.

للعمل غير متحللة من الفرائض والتزام العقائد، كل يعمل حسب طاقته وعلى قدر استعداده والاعتدال في التفكير والموازنة بين العمل والراحة والبذل والأخذ، فعلى دعاتنا اليوم أن يدركوا هذا المعنى الذي رسخه القرآن وبينه نبي الإسلام في قوله وعمله وتقريره فليست دعوة الإسلام إرهاقاً للعقول بالمفاهيم ولا إثقالاً على النفوس بالمشاعر والخواطر المثالية التي تصادم طبيعة النفس وميولها، بل هي تقويم للعقل بالإبقاء على صالح رأيه وإلغاء للفاسد من هواه وتحقيق لرغائب النفس بما يلائم صالح الفرد والجماعة ويرضي الخالق اللطيف الخبير فالإسلام دين الفطرة وليس دين الطفرة وهو دين يفتح نوافذ الفكر الإنساني ولا يطمس معالم النتاج العقلي فلا دعا إلى الله من تنكر لعقل الإنسان وأراد أن يملأه بالتعاليم قبل أن يقنعه بأساس الإسلام أو أراد أن يشحنه بالمحرمات والمكروهات وما يقابلها من الواجبات والمسنونات قبل أن يؤسس له عقيدة الإيمان ويقربه من حظيرة الإسلام، والمسلمون في حاجة اليوم قبل غيرهم من الأمم البعيدة عن الإسلام إلى هذا التأسيس وما أحوجنا إلى الاقتداء بالداعية الأول في تعميق الإيمان والانتقال بعد ذلك في الأمر بما هو أولى بالاتباع والنهي عما هو أحرى بالاجتناب يأتيه وفد بني القيس يقطعون الصحارى من البحرين والاحساء شرق جزيرة العرب إلى غربها فيقولون: «يا نبي الله إنّا حي من ربيعة وبيننا وبينك كفار مضر ولا نقدر عليك إلاّ في الأشهر الحرم فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به» فالقوم قد لا يرون الرسول بعد لقائهم هذا فهل جمع لهم رسول الله جميع المنهيات والمأمورات وكتبها لهم في كتاب؟ إنه اقتصر على الشهادة والصلاة والزكاة والصوم وإعطاء المغنم لأنهم أهل بأس وأصحاب غارات على أعدائهم ثم نهاهم عما يضر بعقولهم مما أسرفوا فيه وداوموا على تناوله من شرب الخمر حتى نهاهم عن الانتباذ في الأوعية سداً للذريعة ومنعاً لتخمير الشراب «وأنهاكم عن أربع: عن الدباء، والحنتم، والمزفت، والنقير»[1]، فقد راعى مقتضى حال القوم فهم أهل شراب فنهاهم عن وسائل تحضيره ومن تلك الوسائل النهي عن تخمير الثمار وعن الانتباذ في تلك الأوعية لأنها تخفي ما بداخلها، فلا يعلم الشارب المسكر حتى يشربه وكان

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، ج ١، ص ١٨٢، ١٨٣.

ذلك النهي في أول عهدهم بالدعوة حتى يألفوا حكم الإسلام في منع الخمر، فإن أقلعوا عن هذه العادة سهّل عليهم الإقلاع عما سواها فهو من باب النهي عن الأثقل قبل الأخف بمثل هذا الأسلوب يؤلف الداعية بين الإسلام وقلوب الناس ويهديهم إلى صراط الله المستقيم.

الفصـــل الثالـث

مراعاة الحالة الاجتماعية للمدعوين

إن الإسلام لم يأتِ لكي يفرّق بين الجماعات، وإنما جاء منذ أن نزل على الأنبياء السابقين ليجمع شتاتها ويوحد بينها على طريق الخير والإيمان، ولذلك تدرجت الشرائع السماوية التي أنزلها الله من خصوصية إرسال الرسل إلى أقوامهم حتى بعث الرسول الخاتم إلى الناس جميعاً وينادي القرآن على الناس كافة يؤلف بين قلوبهم ويحببهم في الإيمان ويدعوهم إلى المساواة **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1].

وراعى الإسلام أعراف الناس وعاداتهم الاجتماعية فلم يبطلها إلا إذا كانت تؤثر في أسسه بالإضعاف أو بالإحباط، فأبطل عبادة البشر والأصنام وكل ما سوى الله تعالى، وأبطل بعض العادات القائمة على الفواحش ولكنه أبقى على بعض العادات الأخرى غير الضارة وتدرج في تحريم العادات التي لم يصل ضررها إلى العقيدة كعادة التبني والظهار وإرث غير ذوي الأرحام وشرب الخمور ونكاح المتعة وأكل بعض اللحوم التي صارت محرمة بعد اكتمال حلقات التشريع في عصر النبوة، كل ذلك لكي لا يشعر المدعو بأن الإسلام يطالبه بالتنازل عن عرفه وعاداته التي صارت جزءاً من سلوكه الإرادي وغير الإرادي، فأبقى الإسلام على ديات القتلى بل شرعها في أحكامه منزلة في القرآن الكريم **﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة**

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا﴾[1].

ونظم الميراث وجعله حقاً من الحقوق الاجتماعية وفصله في القرآن تفصيلاً، ولم يقل بأن المال مال الله ويحرم الناس من الانتفاع، ونظم الزواج ولم يمنعه لأنه استجابة لغريزة إنسانية نافعة تحفظ النوع وتكثر النسل وتكون الأسرة، ولم يحرم الطلاق الذي كان شائعاً بين الناس بل قيده بقيود تكبح جماح الزوج وتحفظ كيان الأسرة، كما أن الإسلام قدر حاجة الجماعة إلى القادة والأمراء فأبقى على الزعامة ولكنه حصرها في الإمامة القائمة على طاعة الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾[2] وراعى الإسلام أحوال النساء وأعذارهم فأباح لهن الفطر عند الحيض والنفاس وترك الصلاة بل وتسامح معهن في عدم إعادتها لأن ذلك مشقة عليهن وطالبهن بإعادة الصوم ليسر إعادته وفرض حد القذف على من يقذف المرأة العفيفة المؤمنة حفاظاً على سمعتها الاجتماعية ﴿**والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون**﴾[3].

كما أن أحكام التعزير في الإسلام تخضع للعرف الاجتماعي، فلا يعزر الشريف المتبع في قومه إن أخطأ فيما دون الحد بما يعزر به ناقص المروءة والمجاهر بالفسق الذي لا يبالي بالناس ولا يحزن لما يقولونه عنه ويرمونه به. وكان النبي ﷺ يراعي الأحوال الاجتماعية للمدعوين فلا يكلفهم رهقاً ولا يطالبهم بالتمرد على العادات وقلب التقاليد، بل يعدل سلوكهم تعديلاً ويوجهه إلى مسار الإسلام توجيهاً، فهو يطالب المسلمين في أعقاب غزوة حنين بأن يعيدوا لثقيف نساءهم وأموالهم التي غنموها وقد جاؤوه بعد ذلك مسلمين فخيرهم بين رد الأموال أو النساء والأولاد بادىء الأمر فقالوا: «ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقال: أما ما لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وسأسأل لكم الناس فقال المهاجرون والأنصار ما كان

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة النور، الآية: ٤.

لنا فهو لرسول الله ﷺ»[1] فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم فكيف يتبعه قوم عن طواعية وقد أسر أبناءهم ونساءهم عندما كانوا كافرين ولكنه ﷺ أصلح شأنهم وجمع شملهم لأنه كان هادياً ولم يكن جابياً، وكان معلماً ولم يكن غانماً.

وكان النبي ﷺ يقدر أن أصحابه الذين اتبعوه بشر تعتريهم أحوال ضعف وتطوف بعقولهم أهواء وتحوم حول نفوسهم شهوات فيأخذهم بالرفق ويسلس قيادهم إلى الإسلام بالرغبة والشوق دون الإكراه والعنت، ولذلك فإنه غضب غضباً شديداً عندما سمع بأن نفراً من أصحابه قد تحنثوا وعزموا على أن يقوموا الليل فلا يناموا ويصوموا فلا يفطروا ولا يقربوا النساء وهرع إلى المسجد واجتمع حوله أصحابه وزجر الفاعلين منهم في تلميح يغني عن التصريح فقال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، ووصف حاله لكي يقتدى به فقال: «أما أنا فأنام الليل وأقوم وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2]، إنها الفطرة القويمة التي تتجاوب مع الحاجات النفسية والبواعث الاجتماعية فلا رهبانية في الإسلام ولكن ربانية معتدلة تعطي للنفس حقها من المتعة وللأهل حقهم من الرعاية وللجسد حقه من الراحة وللخالق حقه من العبادة، ولا يريد الإسلام ولا نبي الإسلام من أتباعه أن يدفنوا مواهبهم القيادية بل حثهم على استثمارها فيما لا يزرع الفتن ولا يلحق الضرر بالأمة فكل ميسر لما خلق له وكل راع سيسأل عن رعيته يوم القيامة حتى لا يستبد به طغيان الإمارة وحتى لا تستطيل به نزوة السلطان، وعندما اقترب موعد لحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى لم يشأ أن يجعل الخلافة وراثة في آل البيت ولم يفته فعليّ والعباس رضي الله عنهما من مكانة عنده ولكنها الإمامة لا يتولاها من تطلع لها حتى لا يطغى وإن كان عليّ كرم الله وجهه، ولا يتقلدها إلا من رجحت كفته في الرحمة على ضعفاء الأمة والشدة على الظالمين منها، فأمر أبا بكر الصديق بالصلاة وهي علامة على استخلافه له ولم يصرح بذلك حتى يعود المسلمين على الاجتماع عند الاقتران والاتفاق عند الاختلاف ويتمرسوا على اختيار إمامهم الأمثل إذا فوجئوا بموت إمامهم أو انخلع من ربقة الخلافة.

---

(١) غزوات الرسول وسراياه، ص ١٥٣.

(٢) عمدة القارىء، شرح صحيح البخاري كتاب النكاح، ج ٢٠، ص ٦٥.

أين ذلك من دعاة اليوم الذين ما خرج كثير منهم إلا لكي ينال سمعة أو يصعد على عتبة دعا إلى الله ودعا إلى دنياه يريد أن يقوّض المجتمع تقويضاً استجابة لنزواته الهدامة التي حرمت من خير فأرادت أن تحرم الناس من خير كثير يخاطب الحضري بما كان يخاطب به القروي ويعرض من حكم الإسلام على الذي يعيش في بيئة صناعية بمثل ما يعرض على الذي يعيش في بيئة زراعية، ويبرز تعاليم الإسلام في العمران والاجتماع مساوياً في ذلك بين الشرقيين والغربيين والأوروبيين والآسيويين لا يلاحظ طبيعة كل مجتمع من التعاون والاختلاف، ولا يفرق بين وضع الأسرة في الشرق من التضامن ووضعها في الغرب من التفكك والانحلال وكثير من الدعاة يرتكب خطيئة في دعوته تخالف أحوال الجماعة وتصطدم بمشاعر المدعوين وهي أنه يتخالف بين دعوته ومسلكه والناس في حاجة إلى قدوة صالحة يرون فيه المثال مجسماً والفضيلة حية، فالداعية مرآة لدعوته لذلك فإن النبي ﷺ وهو يرسل معاذاً إلى اليمن والياً وقاضياً يقول له في ختام وصيته: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1] لأنه وهو إمام وداعية يجب أن يكون عادلاً في قضائه حتى يكون مؤثراً في دعوته وعلى كل داعية أن يكون عادلاً مع نفسه وعادلاً مع دعوته فلا يخالف بين دعوته وسيرته.

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2].

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، ج ٣، ص ١٦٩.
(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

الفصـــل الرابع

التدرج في الدعوة

ينظر الإسلام إلى الإنسان كمخلوق امتزج فيه الشعور والتفكير والإرادة إذا انجذب إلى شيء معنوي أو حسي أقبل عليه بعد ذلك بعقله، فإذا تبين له حسنه من قبحه ورجح صلاحه من فساده أقبل عليه بإرادته ينفذ من السلوك ما يتوافق وذلك الشيء بالمحبة أو الكره بالتنفيذ أو الترك بالاعتقاد أو الجحود.

ولما كان أمر العقيدة والتشريع يحتاج إلى اجتماع تلك العناصر الثلاثة والتي قد تتفاوت قوة وضعفاً استعداداً وتباطؤاً باختلاف الأحوال النفسية والاجتماعية والبيئية، ولذلك فإن الإسلام لم يأخذ بعقائده وتشريعاته الإنسان فجأة بل خاطبه بالأهم ثم تدرج معه في التعلق والاعتقاد ببقية المبادىء العقدية والأحكام الشرعية فأكثر من ثلثي القرآن يعالج مسائل العقيدة وأقل من خمسمائة آية صريحة في الأحكام العملية فهو يشدد على الأساس في الاعتقاد والامتثال.

وهو الإيمان بوجود الله ووحدانيته. وهذا المعنى لا تخلو منه سورة من سور القرآن مكية ومدنية فهو عمدة هذا الدين لأن الإنسان إذا انسلخ عنه أو فرط في مبدأ من مبادئه لا ينفعه التمسك بغيره من الفروع.

فهو أصل لغيره وغيره متفرع عنه يقول تعالى في تأصيل هذا الأساس **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾**[1] وقال قبلها: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك**

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾[1]. فلن يكون الداعية داعياً إلى الإسلام بحق إلا إذا تمسك بهذا المبدأ بوجدانه وعقله وذاد عنه بكل ما يملك ولا يجوز له أن يتهاون فيه أو أن يزيد عليه أو أن يمزجه بغيره أو يسوي بينه وبين غيره في الاعتقاد والتصديق القلبي وإن قبل منه التدرج مع المنكرين لهذا المعتقد ـ الوجود والوحدانية وما يتفرع عنه من أسس إيمانية ـ فلن يقبل منه أن يتدرج فيه مع الذين آمنوا به، فالمبادىء الإيمانية وأسس العقيدة الإسلامية لا تقبل التجزئة في الاعتقاد والرفض ولذلك فإن القرآن ينفي عن الكفار إيمانهم ببعض الإيمان وترك إيمانهم ببعض فيقول: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾[2].

والقرآن الكريم في مخاطبته للناس المنكرين لوحدانيته تعالى أو لأساس من الإيمان يتدرج معهم بإقامة الدلائل ونصب الآيات وتوجيه عقولهم إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾[3] ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[4] ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[5].

﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[6].

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾[7].

﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾[8].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٥٠، ١٥١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.
(٧) سورة سبأ، الآية: ٤٦.
(٨) سورة المؤمنون، الآية: ٨٤.

ولم يرض الله ليونس عجلته على قومه وغضبه عليهم، ولم تمضِ المهلة التي منحت لهم قبل نزول العذاب فذهب مغاضباً وتركهم فآمنوا بعده فكشف الله عنهم العذاب وعاتب نبيه وابتلاه ببطن الحوت ﴿**فلولا كانت قرية آمنة فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾[1] ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾[2].

ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يأخذهم باللين ويترفق معهم في الدعوة ينذرهم عذاب الله إن كفروا ويبشرهم بثوابه إن آمنوا وامتثلوا، ثم يأتيهم الطوفان فلم يعجل عليهم وكذلك فعل الداعية الأول محمد ﷺ فهو يعيد نداء الدعوة إلى أسماع الكفار ولا يمل ولا ييأس ويجادلهم بالتي هي أحسن، ومكث ثلاث عشرة سنة يتلطف معهم ويحتمل أذاهم ثم هاجر وهو غير يائس من إيمانهم ثم جاهدهم عندما اعتدوا على أتباعه وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فتدرج معهم من العفو والمسامحة إلى القتال فإذا انكشفت المعركة ووضعت الحرب أوزارها وصدّ عن دين الله خطرهم عاد إلى العفو والصفح مرة أخرى، ولإفراطه في المسامحة عاتبه ربه فقال: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً**﴾[3].

ويأمر النبي ﷺ ولاته ودعاته من الصحابة الكرام بالتدرج مع المدعوين إلى الإسلام والمبشرين بآياته فيوصي معاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن داعياً ووالياً وقاضياً فيقول: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فاتق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[4].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٤) رياض الصالحين، الإمام النووي ص ٤٥٥.

فلم يكلف النبي معاذاً بجميع فرائض الإسلام ولكنه علمه كيف يعرض مهمات وأصول الإسلام قبل متمماته وفروعه كما أنه لم يأمره أن يدفعهم إلى الإيمان وتنفيذ الأحكام في الصلاة والزكاة دفعة واحدة. بل أمره أن يعرض عليهم الإيمان أولاً فإن هم أجابوه فليأمرهم بالصلاة قبل غيرها من الفرائض لأنها أعم وأنفع وأعسر على القلوب. فإن انقادوا إلى الصلاة كانوا لما سواها من زكاة وفرائض أخرى أسلس انقياداً، فالنفس راغبة إذا رغبتها شيئاً فشيئاً بما يصلحها. والنفس معرضة إن أرهقتها بما لا تطيق من التكاليف أو يعسر عليها القيام به ولهذه الحكمة البالغة نزل القرآن الكريم منجماً مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً**﴾[1].

وإذا كان فيه حكم جديد في آيات تنزل لأول مرة على المسلمين تصدرت الآيات وختمت بما يبين حكمة ذلك الحكم الجديد كقوله تعالى في ختام آية الوضوء والطهارة ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج**﴾[2]. وقال عقب الحديث عن فريضة الصيام ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾[3].

كما أنه ينزل الحكم في الآية أو الآيات في كثير من الأحيان عقب سؤال الصحابة أو شعورهم بالحاجة إلى ذلك الحكم فيأنسوا به بعد نزوله ويقبلوا عليه بأفئدتهم وعقولهم وإرادتهم، ولذلك نقرأ في كثير من الآيات ﴿**يسألونك**﴾ ﴿**ويقول الذين آمنوا**﴾ ـ وقال الذين آمنوا ـ ﴿**يستفتونك**﴾ كقوله تعالى: ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾[4] ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم**﴾[5].

﴿**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**﴾[6].

﴿**ويستفتونك في النساء**﴾[7].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٧٦.
(٧) سورة النساء، الآية: ١٢٧.

﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة﴾[1].

كما أن كثيراً من الآيات اقترنت بأسباب نزول «الوقائع» التي تبيّن كيفية تطبيق الأحكام في واقع الحياة حتى أن أسباب النزول تتعدد في الآية الواحدة لأهمية حكمها ودقته كما في حد الزنا، حيث كانت لآياته أسباب نزول كثيرة في منزل واحد[2]. والإسلام قد تدرج في فرض بعض الأحكام التشريعية لأن الناس لم يألفوها من قبل فلو خوطبوا بها جملة واحدة ومنعوا مما كانوا يعملون وكلفوا بما لم يتعودوا عمله لأعرضوا أو ملوا أو تباطؤوا في التنفيذ. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في استجلاء حكمة التدرج في بعض الأحكام: «كان أول ما نزل القرآن سورة فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل الأمر لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً ولو نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع شرب الخمر أبداً»[3].

لقد تدرج الإسلام في تحريم الخمر فخاطب الحكماء العقلاء أولاً مشيراً إشارة لطيفة إلى ضرر الخمر بأن وصف ما يعتصر من النخيل والأعناب وهو غير مسكر بأنه حسن وقابل بينه وبين المسكر بانتزاع صفة الحسن منه فقال تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾[4].

وهذه إشارة لا يفطن إليها إلا الحكماء الذين يحافظون على عقولهم بترك الخمر ولو لم تكن حراماً، ويستنكفون من شربها مروءة وكرامة ثم أجاب القرآن المسلمين الذين يتساءلون عن الخمر وموقعها من التحليل والتحريم فمهد السبل أمامهم لكي يمتنعوا عنها لأنها من العادات العسيرة الترك ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[5]، ثم ينهى

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص ٩٤، ط ١٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ م.

(٣) تاريخ التشريع الإسلامي، د. عبد العظيم شرف الدين، ص ٦٨، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ط ٣ سنة ١٩٨١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

القرآن المسلمين عن تناول الخمر في أوقات الصلاة وفي ذلك تربية لهم على المصابرة في ترك هذه العادة السيئة شيئاً فشيئاً ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾[1]، ثم ينزل التحريم القطعي وقد كان عمر يدعو الله أن ينزل على المسلمين في الخمر حكماً شافياً حاسماً فيقول تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾[2].

وكذلك فعل القرآن الكريم في تحريم الزنا حيث أمر بحبس الزانيات في البيوت بعد الإشهاد عليهن حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً، ثم جعل الله لهن سبيلاً بما نزل من الأحكام في القرآن والسنة فقال تعالى في حد البكر: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله**﴾[3] وحكم ﷺ في الثيب بالرجم فقد رجم ماعزاً والمرأة الغامدية[4].

ولكي لا يثقل الإسلام على معتنقيه الذين شقوا طريق الدعوة مع الداعية الأول وهم قدوة من سيأتي بعدهم من السالكين طريق الهدى، نسخ بعض الأحكام ببعض فأبطل حكماً كان معمولاً به من قبل بحكم جديد يكون في الغالب أثقل منه وقد يكون أخف منه، وقد يكون مساوياً له فإذا كان الحكم السابق أثقل من الحكم الجديد فذلك راجع إلى عوامل تشجع على فعله والإسلام يجبذها كأن يكون الحكم السابق معمولاً به في الجاهلية كما في مكث المتوفى عنها زوجها في بيت الزوجية سنة كاملة، وقد كان هذا الحكم من عمل أهل الجاهلية فإذا توفي زوج المرأة بقيت سنة كاملة لا يمسها طيب ولا تغسل ثياباً ولا تخرج من بيتها فأبدله الإسلام بمكثها أربعة أشهر وعشرة أيام في بيت الزوجية مع النظافة والخروج نهاراً لحاجة ملحة. قال تعالى في الحكم المنسوخ ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٢.

(٤) تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني ج ٢، ص ٤٧، ٤٨ ط ٢، دار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾[1] وقال في بيان الحكم الناسخ الجديد ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[2].

كما أن الإسلام يتبع قاعدة النسء في بعض الأحكام[3] رأفة بنفوس أتباعه وتحقيقاً لمصالحهم العامة فقد يفرض الحكم لعلة ثم يتوقف العمل به لذهاب تلك العلة، كما في نهيه عليه السلام عن ادخار لحوم الأضاحي لمجاعة أصابت المسلمين في سنة من السنوات ثم إباحته الادخار في العام القابل فإنه إذا عادت المجاعة وجب على المسلمين أن ينتهوا عن الادخار وكما فعل عمر بن الخطاب عام الرمادة عندما أوقف عقوبة حد السرقة.

ومن مظاهر تدرج الإسلام بالمدعوين والمتبعين الذين يدخلون حديثاً في الإسلام تدرجه في إبطال العادات الجاهلية كالتبني، فقد كان النبي نفسه متبنياً لزيد بن حارثة ثم نزل الحكم الشرعي في القرآن الكريم بترك هذه الظاهرة بعد مدة من الوحي قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[4] فعلى الداعية أن يقدر للمدعوين أحوالهم وبيئاتهم فلا يغمرهم بالأحكام غمراً، ويطالبهم بالفرائض صغيرها وكبيرها من أول صيحة يطلقها فإنه عند ذلك سيطفىء الشرارة في قلوبهم قبل أن تتقد ويمحو الإحساس بالانجذاب إلى الإيمان قبل أن ينمو.

«والنهي لا يكون مطلقاً أول الأمر وإنما يصدر بعد أن يأنسه الناس وتقبله المصلحة العامة»[5] وكذلك الأمر بالتكاليف يأتي على مهل مع دلالة على حكمته وشرح لمنفعته في بناء الفرد وإصلاح شأن الجماعة، وقد سخر الناس في عصرنا ممن أراد أن يطبق أحكام الشريعة الإسلامية في بعض المجتمعات الإسلامية فبدأ بتطبيق الحدود وأهمل بقية الفرائض ولم يمهد لتطبيق الحدود بنشر العفة والحث على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٣) اللآلىء الحسان في علوم القرآن لشاهين لاشين ص ٢٠٤، مطبعة دار التأليف مصر، ١٩٦٨ م.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٥) أصول التشريع الإسلامي، الهادي كرو ص ٢٨، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٧٦ م.

الأمانة ودفع المجاعة عن الناس والفصل في المظالم بينهم، فنبذ المسلمون أحكام دينهم لسوء صنع ولاة أمورهم الذين تظاهروا بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فحفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء.

أما السلف الصالح الذين فقهوا في العقيدة والشريعة وعلموا الأحكام وحكمها ومناسباتها وعللها ومقاصدها فإنهم وصل بهم الاعتناء بمراعاة الأحوال والمقتضيات حيث أوقفوا الحدود عن الجنود في الحروب مستقين ذلك من القواعد الشرعية الإسلامية وتقديراً للمصلحة المرسلة، فلو طبقوا حد السرقة على الجندي وهو يسرق وقطعوا يده لكانت الفتنة ولانقلب الجندي متمرداً على قائده وربما انحاز إلى العدو فتحول الحرص على تطبيق الحد إلى هلاك الجيش، وانقلبت السرقة إلى خيانة عظمى ولكن الإسلام دين الحكمة يريد من دعاته أن يكونوا حكماء يعالجون الأمور علاجاً ولا يبترونها بتراً، ويتخلصون من الشر برفق وعناية وتريث من النفس الإنسانية العميقة الأغوار ولا يقتحمونه منها اقتحاماً فترد بعد ذلك نفساً متمردة على الإسلام والمسلمين، ووصلت العناية من الإسلام بهذا المبدأ إلى أن فرض سهماً في الزكاة لفريق من الناس لم يدخلوا في الإسلام لعلهم يشعرون برحمة الإسلام بالفقراء والمساكين ولعل مدهم بالرزق يكون سبيلا يبلغ بهم الحق وهم المؤلفة قلوبهم يقول تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم﴾**[1].

وكان النبي ﷺ ينظر إلى هذه الوسيلة نظرة عناية واهتمام فهو الذي أعطى الأعراب الداخلين حديثاً في الإسلام من غنائم ثقيف، ولم يعط الأنصار بل استرضاهم بقوله: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله بين أرحلكم»[2]، فكان جوابهم أن قالوا: رضينا برسول الله حظاً وقسماً. إنه داعي الدعاة ومرشدهم إلى طريق الدعوة الأمثل وما أحوج دعاة الإسلام اليوم إلى التأسي به ليقبل الناس عليهم في دين الله أفواجاً ويكونوا مبشرين غير منفرين ولا

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦٠.

(٢) سنن ابن ماجة، المقدمة ج ١، ص ٥٨.

معسرين كما أمرهم بذلك ﷺ وكما خاطبهم ربهم في القرآن الكريم **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾**[1].

وعلى دعاة الإسلام اليوم أن يعلموا أنه لا نجاح لدعوة تتجاهل مشاعر الناس وتتنكر لواقعهم.

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

الباب الرابع

وَسَائِلُ انْتِشَارِ الدَّعْوَة

الفصـــل الأول

المكـاتبـــات

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة وكان الروم يحتلون أجزاء أخرى من شمالها وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم حيث سادت المجوسية الأقاليم التابعة لفارس وسادت النصرانية الأقاليم التابعة للروم.

وقد هيأ صلح الحديبية للمسلمين فرصة ثمينة للتعريف بالإسلام ونشر رسالته بين هاتين الدولتين وتوابعهما والتي لم تقم بينها وبين المسلمين حرب آنذاك، وذلك بأن الخطر الحقيقي الذي كان يتهدد الإسلام من جانب قريش ومن جانب اليهود قد زال وصار على المسلمين أن يفكروا في إيصال الدعوة إلى الأقطار الخارجية لأنه ﷺ يعلم أن رسالته عامة ولا تخص أمة العرب في جزيرتها فرأى النبي ﷺ أن يرسل بكتب إلى قيصر وكسرى والنجاشي وأمراء الولايات يدعوهم فيها إلى الله ويعرض عليهم الإسلام، فقد روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل[1]. وقد اختار النبي ﷺ سفراءه من بين الصحابة الذين ترددوا على هذه الأقطار وتعلموا لغاتها وكانت لديهم الكياسة وفصاحة اللسان في

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد ج ١٢، ص ١١٢.

مخاطبة المدعوين[1].

وقد امتازت هذه الكتب ببلاغتها وإيجازها فكان طابعها أنها تصدر بالسلام على من اتبع الهدى والحمد لله، ثم الدعوة إلى الإسلام في عبارات رصينة تظهر فيها قوة الداعية الأول وحكمته وبلاغته.

وقد أشار الصحابة إلى أن هؤلاء الملوك والأمراء لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً ليكون إشعاراً بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم بحيث يكون الختم عليها بعد طيها والغرض من ذلك أمن التزوير فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر «محمد رسول الله»[2]. وقد ورد في السير أن اسم الله ورد في الجزء الأعلى منه، واسم النبي محمد في القسم الأسفل منه وبينهما كلمة رسول[3].

كتابه إلى قيصر:

بعث رسول الله ﷺ إلى هرقل دحية الكلبي بكتاب هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**[4].

وقد كان لهذا الكتاب أثره في أوساط الروم وأهل الشام ومشركي قريش فلم يأخذ هرقل الكتاب كما يأخذه ملك بل أخذه كما يأخذه عالم، فقد كان هرقل عالماً

---

(١) الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٧.

(٢) السيرة الحلبية، ص ٢٨١.

(٣) محمد رسول الله، مولاي محمد علي ص ١٥٣، مكتبة مصر، القاهرة صحيح مسلم ج ١٢، ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

بالملاحم والنجوم وأخبار النبيين وكان من علماء النصرانية الذين يريدون أن ينتشر الحق في ذاته لولا الملك وسورته.

وهكذا أثر الكتاب في قلب هرقل ونراه يصدق كل ما فيه ويميل إلى الإسلام لا سيما بعد أن استوضح الأمر عن الرسول الكريم ﷺ وأخلاقه من أبي سفيان الذي وافق وجوده هناك، فقد دعا قيصر أبا سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها، وكان أبو سفيان يومئذ على عداوة شديدة للإسلام ورسوله مدة سنوات عديدة انقضت بحشد المقاتلة واستنفار المشركين لحرب المسلمين وانظروا إلى هذا الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذي يتمنى لو استطاع أن يقتله ويمحو اسمه ويخفض من شأنه، ولكن أبا سفيان يقول رداً على سؤال هرقل إن محمداً فينا ذو نسب وإنه لا يكذب ولا يغدر فهل هناك شهادة أعظم من هذه الشهادة.

إن الموقف حرج والسائل ملك ذو شوكة وقوة يسأل رجلاً ملأ الضغن صدره عن أمر الرسول ﷺ فلا يقول فيه إلا الصدق والحق[1]؛ ولكن هرقل اختار الملك ورضاء قومه فاشترى الضلالة بالهدى فما ربحت تجارته وما كان من المهتدين.

كتابه إلى كسرى:

بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى وأمر به عبد الله بن حذافة السهمي فمضى بالكتاب ونصه: «من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم الفرس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله تعالى، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وإن تسلم تسلم فإن توليت فإن إثم المجوس عليك»[2].

ولما قرأ كسرى الكتاب مزقه استكباراً فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «اللهم مزق ملكه كل ممزق». فكان ذلك فقد جز الله أصله وقطع دابره لأن كل ملك

---

(١) الرسالة المحمدية، سليمان الندوي ص ١١٨، ط ٣ مكتبة دار الفتح، دمشق.
(٢) تاريخ الإسلام السياسي، ج ١، ص ١٥٩.

أخرج من معظم ملكه يقيم على بقية منه، ولكن الإسلام لم يترك لهذا الملك مكاناً تناله الحوافر والأقدام إلا أزاله عنه قال الشافعي في كتابه الأم «فلم يكن بأرض العراق كسرى بعده ثبت له أمر وكان كما قال الرسول الكريم ﷺ فقطع الأكاسرة عن العراق وفارس»[1].

ثم كتب كسرى بعد تمزيقه الكتاب إلى باذان عامله على اليمن يأمره بأن يبعث إلى النبي ﷺ رجلين جلدين من عنده يأتيانه به فلما قدما على النبي ﷺ جاءه الوحي بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله فأخبرهما النبي ﷺ بذلك وقال لهما: إن ديني وسلطاني يبلغ ما بلغ كسرى، فانصرفا وأخبرا باذان بذلك وإذا بشيرويه يبعث كتاباً إلى باذان يعلمه فيه بقتل كسرى وتوليه مكانه[2].

ولئن كان كتاب رسول الله لم يزد كسرى إلا امتناعاً فقد أثر في غيره بالاستجابة فأسلم باذان وهو فارسي، وأسلم من معه من الأبناء من فارس وهم باليمن[3].

وهكذا يستقبل كسرى رسالة النبي بغير ما يستقبلها به قيصر لأن الأخير ما زال يتعلق بأثر من الكتاب ولكنه لم يؤمن فقد أخلد إلى الدنيا واتبع هواه ولكنه حسن ظنه بالنبي ﷺ وأثنى عليه خيراً بخلاف كسرى الذي استهان برسالة النبي ومزقها فكان ذلك سبباً في تشتت جمعه وتمزيق ملكه، فهو يجهل وحي السماء ولا يملك ما يملكه قيصر من أثر الكتاب.

كتابه إلى النجاشي:

بعث رسول الله ﷺ كتاباً إلى النجاشي ملك الحبشة هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي أصحمة ملك الحبشة سلم أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن،

---

(١) كتاب الأم، الإمام الشافعي، ج ٤، ص ١٨١، ط ٢ دار الفكر، بيروت ١٩٨٣.
(٢) حماة الإسلام، مصطفى نجيب ص ٣٦.
(٣) الرحيق المختوم، ص ٣٤١.

وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى»[٣].

هذا هو كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشي ولا يخفى ما احتواه من رفق الدعوة وحكمة النبوة، ولقد بعثه مع عمرو بن أمية الضمري الذي دخل على النجاشي فقال له: إن عليّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا منا وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء إلا أمنّاه فأجابه النجاشي إجابة المؤمن فقال: أشهد أنه النبي الأميّ الذي ينتظره أهل الكتاب وحمل عمرو بن أمية كتابه إلى رسول الله ﷺ وهذا نصه:

«إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[٢].

فصادف كتاب النبي في نفس النجاشي موقعاً فتقبله بقبول حسن وآمن بالحق فاهتدى.

كتابه إلى المقوقس:

بعث النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتابه إلى المقوقس عظيم القبط ونصه:

---

(١) العرب وظهور الإسلام، محمد مصطفى النجار وأحمد مجاهد مصباح، ص ٥٥١، الرحيق المختوم ص ٣٣٧، ط ١ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩ م.

(٢) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري ص ٣٣٨.

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء. . .»[1].

وقد ذكر حاطب أن المقوقس أكرمه وأنزله في منزله وأقام عنده ثم جمع بطارقته ووجه لحاطب أمامهم أسئلة تتعلق بالنبي وقومه أجاب عنها حاطب بكل قدرة ومهارة فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال ولا بالكاهن الكاذب وسأنظر ثم أخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في خف من عاج وختم عليه، ثم كتب كتاباً إلى رسول الله ﷺ نصه «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبياً بقي وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما في القبط مكان عظيم وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك»[2].

كتابه إلى المنذر بن ساوى:

كتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام وبعث إليه العلاء بن الحضرمي فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: «أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه وبأرضي مجوس ويهود فأحدث لي في ذلك أمرك» فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ج ٣، ص ٨٨، المطبعة الحسينية، القاهرة.
(٢) خاتم النبيين ج ٢، ص ١١٦٨ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٧٢.

وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»[1].

كتابه إلى أهل نجران:

أخرج البيهقي أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران كتاباً نصه: «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام»[2].

وقد اجتمع رأي أهل نجران على أن يبعثوا وفداً منهم يأتيهم بخبر رسول الله فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حللاً يجرونها وخواتيم الذهب، فلما أتوا رسول الله ﷺ وسلموا أبى أن يرد عليهم حتى غيروا تلك الملابس فرد سلامهم وقال: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم»[3].

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص(*) إلى جيفر وعيد ابني الجلندى ملكي عمان وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعيد ابني الجلندى، سلام على من اتبع الهدى أما بعد.فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما»[4].

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ج ٣، ص ٦١، ٦٢، ط ١، المطبعة المصرية ١٩٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١، ص ٣٦٩.

(٣) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي ص ، ط ٥، دار القلم، دمشق ١٩٨٧.

(٤) السيرة الحلبية، ص ٣٠١.

(*) هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي أسلم عام الفتح وفتح مصر وليبيا وتوفي بمصر سنة ٤٣ هـ، أعلام الصحابة، ص ١١.

وكتب رسول الله إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وكتب بإسلامه إلى الرسول ﷺ وأهدى له هدية ولكن حق عليه القول فارتد في عهد عمر لأنه لطم أعرابياً وهو يطوف بالبيت فأراد عمر أن يقتص منه فهرب إلى بلاد الروم مرتداً.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصدقة في المواشي والأموال ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً[1].

وقد كتب النبي ﷺ كتباً أخرى إلى بعض الأمراء مثل كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وإلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة وغيرهم كثير، كما كتب إلى أهل الإسلام يوضح لهم الشرائع والأحكام.

وهكذا انهدمت بهذه المكاتبات الأسوار التي كانت تحول دون إيصال الدعوة إلى الأماكن المجاورة فقد نفذ الإسلام بأنواره القوية إلى دنيا جديدة من العالم الخارجي من فارس إلى الروم إلى بلاد الشام واليمن والحبشة وهو تحول خطير في الدعوة.

وفي هذه المكاتبات برهان جديد على صدق الرسالة المحمدية وعمومها، ذلك لأن النبي ﷺ يعلم أنه مكتوب بصفته في التوراة والإنجيل وهذا الأمر قد أعطى لهذه الرسائل أثراً عظيماً في نفوس المكتوب إليهم من أهل الكتاب، فمنهم من آمن ومنهم من اقتنع في قرارة نفسه بصدق هذا الرسول ولكن خوفه ممن حوله منعه من الإسلام، ومنهم من كابر وامتنع عن الإذعان لصوت الحق ولكنه لم يستطع أن يقف في طريق الدعوة الإسلامية التي انتشرت في بقية ممالكه.

ولقد استبشر المشركون أول الأمر حينما علموا أن مكاتبات من النبي ﷺ قد صدرت إلى ملوك الأرض وظنوا أن إقدام الرسول ﷺ على هذا العمل هو بداية النهاية لهذه الدعوة وخاصة عندما علموا بما فعله كسرى من تمزيق الكتاب وطلبه من عامله في اليمن إحضار الرسول ليمثل أمامه، لكن نزيل حراء الذي أخرجه قومه بالأمس من مسقط رأسه ورموه في الطائف بالحجارة حين ذهب يبلغهم

---

(١) الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

الدعوة كان يقدم على مكاتبة الملوك والأمراء بشجاعة فائقة وعزيمة لا تنثني وهو يعلم علم اليقين أن الله ناصره ومظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون، **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾**[1].

وكان من النتائج الإيجابية لدعوة النبي ﷺ خارج الجزيرة العربية قدوم وفد نصراني فيه القسيسون والرهبان لاستطلاع النبأ العظيم والاتصال بصاحبه مباشرة، فاستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن ففاضت عيونهم من الدمع وأعلنوا الإيمان برسالته والتصديق بما أنزل الله في موقف رائع احتوت وصفه آيات سورة المائدة في قوله تعالى: **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**[2].

كما قدم وفد نصراني آخر من نجران اليمن للقصد ذاته وكان مؤلفاً من أربعة عشر شخصاً من أشرافهم فيهم أميرهم وصاحب مشورتهم الملقب بالعاقب، ومعهم أسقفهم واسمه أبو الحارث وقد تناظروا في شأن المسيح[3] ودعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة فرفضوا خوفاً على أنفسهم من العذاب **﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾**[4].

إن الظروف التي أحاطت بتوجيه هذه الرسائل إلى الملوك والأمراء لتستحق شيئاً من التأمل والاعتبار فلو أن الرسول وجهها بعد إخضاع بلاد العرب برمتها إذاً لكان في إمكان الباحث أن يعدها إجراء أوحى به الطموح[5]، ولكن الأحوال التي كانت سائدة في تلك الآونة كانت صعبة على النبي ﷺ والمسلمين فقد حوصرت

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

(٣) تاريخ العرب في الإسلام، محمد عمزة دروزة ص ٢٤٢، المكتبة العصرية بيروت.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(٥) حياة محمد ورسالته، مولاي محمد علي، ص ١٩٨، ط ٧، دار القلم، بيروت ١٩٨٤ م.

المدينة قبل ذلك باثني عشر شهراً ليس غير وكان المسلمون وإلى وقت إرسال هذه الرسائل أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة دينية هامة كالحج، وكان المشركون هم أصحاب السلطان حتى لقد فرضوا شروط صلح الحديبية منذ فترة يسيرة على المسلمين، وفي كل ناحية من بلاد العرب كان الإسلام محاطاً بالأعداء ومع ذلك فإن إيمان الرسول بوجوب تبليغ الدعوة واطمئنانه إلى انتصار الإسلام لم يتزعزع لحظة واحدة وإن هذه الرسائل تثبت حقيقة عالمية الإسلام.

الفصـــل الثاني

الفتـوحـــات

إن أساس الدعوة الإسلامية يقوم على الإبلاغ في غير إجبار فيتقبل المدعو الدعوة أو يرفضها ولا حجة عليه في تركها إلا ما يكون عليه من حساب ربه يوم يقوم الأشهاد. وقال أصحاب هذه القاعدة العقدية في أول مصدر من مصادر الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾[1] وخاطب رسوله مستنكراً عليه اعتقاد إجباره الناس على الإيمان ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2].

ولكن الحق وحده إذا تجرد عن الحماية قد لا يصل إلى الأسماع بل قد يعجز أصحابه عن التصريح به، والكتاب إذا لم يدافع عنه السيف قد تطمس حروفه أو تحرف معانيه من أعدائه لذلك كانت الفتوحات الإسلامية ممهدة لسبيل الدعوة وإن لم تكن مجبرة للناس على اعتناقها وشاء الله أن يحمي عقيدة الإسلام بجهاد معتنقه منذ أن صار لهم كيان في المدينة، وبعد أن طهر الله الجزيرة من الأوثان والأصنام والخرافات والأوهام انطلق الفاتحون يشهرون الحق قبل السيف وينطقون بآيات الكتاب قبل أشفار الرماح، فاعتنق الإسلام كثير من أهل المناطق التي كانت واقعة تحت حكم الفرس بعد فتحها على أثر انتصار المسلمين في معركة جلولاء على الفرس سنة ١٦ هـ وهي من مناطق النهرين وبابل والفلاليج وكوثى وغيرها[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢٢١.

وبعد أن تمكن المسلمون من فتح بلاد فارس كلها وقضوا على الدولة الساسانية في عهد الخليفة عثمان بموت «يزدجرد» سنة ٣١ هـ، رحب سكان تلك المدن بالدين الإسلامي لا سيما الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة واعتنقه الكثير منهم في حماس كبير وهم الذين كانوا ينظر إليهم باحتقار وازدراء وقد ترتب على اعتناقهم الإسلام أن أصبحوا أحراراً مساوين لغيرهم في المذهب الديني بخاصة، ولم تكن القوة هي السبب في تحويل الناس إلى الإسلام بدليل المعاملة الحسنة التي عامل بها المسلمون من بقي من الفرس متمسكاً بمذهبه القديم ولا تزال هناك جماعات منهم تعبد النار.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ ـ ١٠١ هـ) كتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ووعدهم بأن يقرهم على ما بأيديهم وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وكان قد بلغهم من سيرته ما حبب إليهم الإسلام فأسلم كثير من الملوك والأمراء ورعاياهم ومن بينهم (حليشة بن واهر) وتسموا باسم العرب[١].

وعندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمرو بن العاص فإن بعض سكانها الذين تمسكوا بمسيحيتهم كانوا يدفعون الجزية بينما دخل كثير منهم في الإسلام إثر الفتح، وعند فتحه برقة وزويلة دخل الإسلام كثير من سكان هذه المناطق وتعاونوا مع قوات الفتح فأدى مسلمهم الصدقة ودفع معاهدهم الجزية.

وعندما تم للمسلمين فتح الشمال الإفريقي عمل الفاتحون على إدماج شعوب هذه المنطقة مع العرب وقد ساعدهم على عملية الاندماج عوامل كثيرة منها هجرات العرب إلى هذه المناطق واختلاطهم بالسكان الأصليين والعمل من جانب الحكام العرب على تحقيق المساواة بين العرب والبربر في وظائف الدولة وتحسين حالتهم الاجتماعية وتحسين التبادل التجاري لديهم[٢].

---

(١) تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٠٨.

(٢) فتوحات الإسلام في إفريقيا، محمد مصطفى النجار، أحمد مجاهد مصباح ص ٢٧، ط ١، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧.

كما ساعد انتشار اللغة العربية على هذا الاندماج حيث كانت القوة الوحيدة التي لم تنهزم بانهزام أصحابها، وانتصرت أكثر من أنصارها واستطاعت أن تقهر لغة البربر كما استطاعت من قبل أن تقهر لغة فارس.

ولقد هاجر كثير من العلماء إلى هذه الجهات بعد فتحها وكونوا مدارس للحركة الفكرية والعلمية حيث تخرج منها علماء في العلوم الإسلامية قاموا بنشر كتاب الله وسنة رسوله في الرباطات المختلفة.

وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على توحيد الفاتحين، وأهل شمال افريقيا بصورة وثيقة حتى عبر عنه المؤرخون بعصر الاندماج.

أما في إسبانيا فقد استطاع الإسلام بعد أن وطد سلطة المسلمين فيها أن يقمع عناصر الشر والفوضى وينشر العدل والحرية والمساواة، وأن ينظم إدارة البلاد ويبث فيها روحاً جديدة من العزم والنشاط فنشطت التجارة والزراعة والصناعة وهبت رياح الرخاء على مجتمع رزح أمداً طويلاً تحت أعباء البؤس والشقاء[1].

وأحسن المسلمون سياسة سكان الأندلس كما أحسنوا من قبل سياسة أهل سوريا ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم ولم يفرضوا عليهم سوى الجزية والخراج بعد أن كانوا يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تنفق على الدولة.

ولقد كانت عدالة النظام الإسلامي في مختلف وحداته بعد أن تمت حركة الفتح عاملاً هاماً في انتشار الإسلام واعتناق الناس له، ذلك لأن تخليص الإسلام للجماعات المختلفة من الجور والظلم وما رسمه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الولاة في المواثيق التي عقدوها كعقد بيت المقدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب.

كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى اعتناق الإسلام بعد أمد قصير من حركة الفتح، ويعترف توماس آرنولد «بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام، فلم نسمع بأي محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير

---

(١) فتوحات الإسلام في إفريقيا، ص ١٣٤.

المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد به استئصال الدين المسيحي»[1].

وقد تولت جماعات من المسلمين في مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادىء الإسلام، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر بعد الفتح من يفقه الناس في الدين ويحفظهم القرآن الكريم وكانت الجزية التي يدفعها غير المسلمين والتي هي بمثابة ضريبة الدفاع كانت ترفع عن صاحبها إثر إسلامه.

وإن مجرد بقاء الكنائس الشرقية في آسيا حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح ديني أدى إلى دخول الكثير من المسيحيين في الإسلام.

رد شبهة انتشار الإسلام بالسيف:

لهج معظم الأوروبيين وضعاف العقول من العرب والمسلمين بأن الإسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود إلا لأنه سعى والسيوف تحوطه تمهد له السبل وتذلل بين يديه العظماء وتلجىء المستضعفين إلى اعتناقه حقناً لدمائهم وصيانة لأملاكهم، وقد ضربوا لذلك الأمثال بما قام به النبي من سراياه ومغازيه ثم بما عمله خلفاؤه من بعده.

ولو أنهم قرؤوا القرآن وشيئاً من التاريخ وسيرة الرسول الكريم ﷺ لما تطرق ذلك الخطأ إلى عقولهم ولما استحوذت عليهم هذه الوساوس حتى يرموا النبي ﷺ وصالح سلفه بما هم منه براء، أضف إلى ذلك أن المتتبع لأسباب غزوات الرسول وحروبه يعرف جيداً أنه ما بدأ أحداً بقتال ولا عدوان في جميع ما حدث من غزوات وسرايا، والشواهد على ذلك كثيرة فمن درس غزواته وسراياه وجدها إما لحرب عدو لم يدع أذى وصلت إليه يده إلا فعله كغزوة بدر، أو دفاعاً لعدو مهاجم كغزوة أحد والخندق، أو مبادرة لعدو تحفز لشر كغزوة بني قريظة والمريسيع ودومة الجندل وغزوة ذات السلاسل، أو كسر لشوكة عدو نقض العهد وعرف بمحاربة

---

(١) الإسلام وحركة التاريخ، ص ١٧٧.

الدعوة كفتح مكة وفتح خيبر[1]. لقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فلم يسلّ لتأييد رسالته إلا سيف الهدى والحجة الدامغة، ودخل المسلمون الإسلام غير مهددين ولا مرغمين ولكن طائعين مخبتين[2].

ومن الذين افتروا على الإسلام زاعمين أنه انتشر بالقوة «فيليب حتي» حيث يقول في كتابه (تاريخ العرب): «إن الذي قاد جموع البدو من مواطنهم الجرداء إلى البلاد الجميلة في الشمال ليس هو التعصب وإنما هي الضرورات الاقتصادية، ولقد كان الامتداد الإسلامي هو المرحلة الأخيرة لتقاطرهم التدريجي من الصحراء الجدباء إلى أرض الهلال الخصيب المجاورة لديارهم».

فكأنه يجعل مقصد المسلمين من القتال إشباع البطون الجائعة، وليس دفع العقبات المانعة من وصول دعوة الحق إلى الناس كافة.

ويقول داويت دونلدش: إننا نشك في الحقيقة إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحمل العرب على القيام بهذه الفتوح والغزوات الواسعة على البلاد المجاورة، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة.

ويذهب المستشرق استانلي بول في كتابه العرب في إسبانيا نفس الاتجاه فيقول: لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة والأرض الخصبة والمدن العامرة في الممالك المجاورة كانت عاملاً كبيراً في تحمس المسلمين لنشر الإسلام.

إن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المادة قديمة بدأت مع بدء الإسلام واتهم بها الرسول نفسه حيث عرضت قريش عليه المال والجاه ولكنه رفض كل ذلك، وقال قولته الشهيرة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[3].

وللرد على افتراءات المستشرقين نورد ما ذكره أحمد شلبي حيث يقول: إن

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح، محمد الخضر، ص ١١٤.
(٢) الإسلام دين الفطرة والحرية، عبد العزيز جاويش ص ٩ بتصرف.
(٣) السيرة النبوية، المجلد الأول، ج ٢، ص ٢٦٦.

المسلمين صارعوا الشرك في قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاماً سقط خلالها آلاف من خيرة المسلمين في الغزوات والحروب وكانت هذه المعارك تدور في البادية المقفرة بعيداً عن الأطماع الاقتصادية، كما أن المسلمين طالما حاولوا نشر الإسلام بلا حرب وبلا غنائم كما حصل في فتح مكة، وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد إسلامهم كما حدث في غزوة حنين[1].

وقد ردّ بعض المنصفين من المستشرقين على شبهة انتشار الإسلام بالسيف ومن هؤلاء «روجيه غارودي»[*] الذي يقول: إن سبب نجاح الإسلام وانتشاره كانت أسباباً داخلية تتصل بجوهر الإسلام وروحه، وفي رأس هذه الأسباب طرح مبدأ المساواة بين البشر مما يؤدي إلى القضاء على المظالم السياسية والاقتصادية والدينية[2].

أما المستشرق «فون كريمر» فيقول: كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول ﷺ قتل الرهبان والنساء والأطفال والشيوخ، كما حرم عليهم تدمير المزارع وقطع الأشجار، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية فلم ينتهكوا الحرمات ولا أفسدوا الزرع، وبينما كان الروم يقذفونهم بالسهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم وكان نهب القرى وإشعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى فلم يحاولوا من هذا شيئاً[3].

ويقول جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: «إن الإسلام انتشر بالدعوة لا بالسيف وبالدعوة وحدها اعتنقت الأمم التي قهرت العرب كالترك

---

(١) مقارنة الأديان، ج ٣، ص ١٨٠.

(*) روجه غارودي ولد في مرسيليا سنة ١٩١٨ وأعلن إسلامه في سنة ١٩٨٢ من أشهر كتبه ـ ما يعد به الإسلام ـ الإسلام دين المستقبل.
ـ روجيه غارودي، رامي كلاوي ص ٢٨، ٢٩.

(٢) ما يعد به الإسلام، روجيه غارودي، ص ٨٠، ط ٢، دار الوثبة، ١٩٨٣.

(٣) الإسلام وحركة التاريخ، ص ٨٠.

والمغول الإسلام، وبالدعوة انتشر الإسلام في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، وبالدعوة انتشر الإسلام في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قطْ. ويشهد «لوبون» أن الخلفاء السابقين كان عندهم من العبقريات ما أكد لهم أن الأديان ليس مما يفرض قسراً، فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم وحفظ الأمن بينهم، وإن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء مثل العرب تلك الرحمة التي كانت سبباً في اتساع فتوحاتهم واعتناق كثير من الأمم لدينهم[1].

ويقول هنري دي كاستري في كتابه تأثرات ومباحث: «إن العرب بعد أن دانوا بالإسلام برزوا في مجال المسالمة وحرية الأفكار لأن القرآن حثهم على محاسنة الناس، فبعد الآيات القرآنية التي تأمر بالقتال مع القبائل المارقة نزلت الآيات التي تدعو إلى السلم وعدم الإكراه في الدين».

ويقول المفكر «توماس آرنولد»: ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق، وأن السيف إذا كان يمتشق لتأييد قضية الدين فإن الدعوة والإقناع وليس القوة والعنف كانا الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه»[2].

ويقول روبنسن: «إن شيعة محمد وحدهم هم الذين جمعوا بين معاملة الأجانب بالحسنى وبين محبتهم لانتشار دينهم. وقد كان من أثر هذه المحاسنة أن انتشر الإسلام بسرعة، كما أن هذه المحاسنة إلى جانب عظمة الدين الإسلامي أدت إلى انحسار ظل النصرانية عن شمال إفريقيا»[3].

ومن الأدلة على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف أن القرآن الكريم يعلم النبي ﷺ ويوجهه إلى ما ينبغي أن يكون عليه منهجه في الدعوة والسلوك مع الناس فيقول: ﴿فذكّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾[4]، ويقول له: ﴿فإن

(١) مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، ص ٢١٨، ط ١، دار الفكر، بيروت ١٩٧٢.
(٢) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، ص ٧٢، ط ٣، دار الفكر، دمشق ١٩٨١.
(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وهبة الزحيلي، ص ٧٤.
(٤) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢.

أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾[1]، ويقول له أيضاً: ﴿إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾[2].

ويوجه القرآن الكريم الرسول وأتباعه إلى الميل نحو السلام كلما مال إليه المشركون فيقول تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[3].

وإلى أن أي مشرك يستجير بالنبي عليه أن يؤمن حياته حتى يسمعه القرآن لعله أن يسلم قال تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾[4].

إن النبي أخرج من مكة هو ومن آمن معه بعد ثلاثة عشر عاماً حافلة بالآلام والأحزان ولم تهدأ عداوة قريش ضد الإسلام بعد الهجرة بل وثبت على كل من شرح بالإسلام صدراً من أهل مكة، فنكلت به. وكان دعاء المستضعفين والمفتونين ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾[5].

ولم يأذن الله تعالى لرسوله بقتال المشركين والرد على أذاهم ومصادمتهم بالقوة إلا بعد الهجرة بسنة بعد أن نزل عليه من آيات النهي عن القتال ما يربو على سبعين آية[6].

ولو كان مسلك الإسلام في نشر دعوته هو مسلك القهر والتسلط بالسيف لما أطلق الرسول سراح القرشيين عقب انتصاره عليهم يوم فتح مكة وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، ولما قبل الجزية من الذين امتنعوا عن دخول الإسلام، ولما صالح أهل خيبر وترك بني النضير يهاجرون إلى البلد الذي يريدون.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٢) سورة فاطر، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٧٥.
(٦) موقف الإسلام من الوثنية، ص ٩٤.

وفي سنّة الرسول أدلة ثابتة على أن الإسلام دين السلام والتسامح وليس دين العنف والقوة: ـ

حدث نافع عن عبد الله بن عمر أن امرأة وجدت في بعض مغازي الرسول مقتولة فأنكر ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان[1].

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا»[2] ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[3].

وفي وصايا الخلفاء الراشدين لأمراء الفتح دليل ناصع على أنهم سلكوا نهج رسول الله في نشر الدعوة يقول الخليفة أبو بكر الصديق في وصيته لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام: «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمالكه وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[4].

وكان من وصايا الخليفة العادل عمر بن الخطاب لأمراء الجند: «لا تقتلوا

---

(١) صحيح مسلم، ج ٥، ص ١٣٩.

(٢) لا تسرقوا الغنائم.

(٣) كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٣٢، ٣٣، ط ٢، دار الفكر، ١٩٧٥، ١٩٧٦.

(٤) تاريخ الإسلام، ج ، ص ٢١٣.

هرماً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الجمعان وعند شن الغارات».

ولقد كان تسمية الحرب في الإسلام بالجهاد فيه إيحاء إلى أنها ليست حرب قتل وغلب، ولكن دعوة للحق وحماية له من أن يعتدى عليه، وفتح الطريق لتصل الدعوة إلى النفوس وإزالة الحواجز المانعة ولذلك كان على القائد الذي يقود جيش الإسلام إلى الجهاد أن يدعو إلى الإسلام فإن أسلم من يدعوهم فهم مثلنا علينا حمايتهم ولهم أخوتنا، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على سبيل من إقامة الحق وفتح الطريق للدعوة الإسلامية فمن يجيب ويهتدي دخل الإسلام، ومن لا يستجيب فهو حر في معتقده[1].

ولقد كان للإسلام ومبادئه العادلة وما ألزم به المسلمون أنفسهم من تطبيق هذه المبادىء في السلم والحرب الأثر الطيب في نفوس أهل البلاد المفتوحة، فقد دخل كثير من أهل هذه البلاد في الإسلام راضين مستبشرين حين لمسوا الخير في أتباعه وعندما رأوا سيرة المسلمين وهم يطبقون تعاليم دينهم التي تأمرهم بالعدل والإحسان وتنهاهم عن المنكر والظلم والعدوان[2].

إن دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه ليس خاصاً بالدين الإسلامي، بل هو طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه إذ ليس القتل في طبيعة الإسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة، ولكن القتال شرع لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم ولم يكن ذلك للإكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه[3].

وفي هذا المقام يجب أن نفرق بين التوسع السياسي للدولة الفتية وبين الاضطهاد الديني فإذا كانت أوروبا قد شاهدت في القرون الوسطى وعصر النهضة امبراطوريات تكبح جماح العقل وتكره الناس على عقيدة وتلزمهم برأي، فإن المسلمين وإن توسعت دولتهم استجابة للمد السياسي الذي يستدعي إلغاء دول

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٦٩، دار الفكر العربي، القاهرة.
(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص ٥٣.
(٣) الإسلام والنصرانية، الشيخ محمد عبده، ص ٦٢.

وكيانات سياسية تشكل خطورة على دولة الإسلام الكبرى، فإنهم لم يجبروا الناس على دين الإسلام وكيف يكرهونهم والقرآن ينادي عليهم ﴿**لا إكراه في الدين**﴾[1].

ونشاهد في عصرنا الحاضر وهو عصر الدول المستقلة والقوميات المتميزة لا يستنكر الناس على دولة كبرى أن تمد من قوتها في أقطار الأرض سواء كان ذلك بالاستيلاء الاقتصادي أو التحكم العسكري في شكل قواعد ومعاهدات تضعف من كيان الدول الأخرى، بل إنها قد تلجأ أحياناً إلى احتلال بعض المواقع في العالم لأنها إن لم تفعل ذلك تقلص كيانها وانحسر نفوذها وضعفت إرادتها وانحدرت قوتها إلى ضعف، فالإسلام من موقفه الدفاعي يدعو إلى الهجوم ويأمر أتباعه بألا يقفلوا باب الجهاد لا لأنه يريد منهم أن يكونوا مضطهدين لعقائد المخالفين، ولكنه يريد لهم ألّا يكونوا مضطهدين من غيرهم في عقيدتهم ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[2].

هذا هو الإسلام في صورته الصحيحة فأين منه ما تفعله دول المدنية الحديثة ودعاة التقدم المنادون بحقوق الإنسان في هذا العصر من تدمير المدن بمن فيها وما عليها من عشرات الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ العجزة غير المحاربين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

الفصـــل الثالـث

التجـــــارة

لقد كان توسع انتشار الإسلام عن طريق الفتوحات التي تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مدبري خطط العدوان ضد الإسلام، وتتمثل هذه المرحلة في حركة توسع امتدت شرقاً وشمالاً وغرباً فاستطاعت في عصر الخلفاء أن تبلغ حدود الهند وإفريقيا، ثم كانت موجتها الثانية في عصر الأمويين حيث بلغت إلى حدود الصين شرقاً وحدود فرنسا غرباً بعد أن افتتح المسلمون أوروبا وأقاموا دولة الأندلس.

وهناك وسيلة أخرى لتوسع انتشار الإسلام ذاتياً وهي «التجارة» حيث أبصر أهل البلاد المقصودة في التجار الوافدين عليهم أخلاق الإسلام في سلوكهم ومعاملاتهم لما يتحلون به من صدق وأمانة وحلم وكرم ولما يلزمون به أنفسهم من شعائر دينية على رأسها الصلاة إذ لا تلهيهم عنها تجارة ولا بيع. وسرعان ما ألف الناس من أهل البلاد المتاجر فيها أولئك المسلمين وامتزجوا بهم بتزويج المسلمين منهم، وأخذ نساء المسلمين يدخلن في الإسلام بتأثير حسن معاملة أزواجهن وتكرار دعوتهم إياهن إلى الدين الحنيف حتى اتسعت دائرة الدعوة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً من غير انبهار بقوة عسكرية بل بانجذابهم إلى أخلاق الإسلام ممثلة في حسن معاملة أولئك التجار وتوافق أقوالهم مع أعمالهم، ومناسبة دعوتهم لمسلكهم، وقد استخدم التجار في دعوتهم ذكاءهم الفائق وحضارتهم العظيمة وأظهروا مقدرة فائقة في تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث اتضحت فوائد أحكام الإسلام للمدعوين فسارعوا إليه.

ولقد كان لعرب الجزيرة صلات تجارية بحرية وثيقة مع ساحل الهند الغربي ولما كان يجنيه حكام مدن ساحل مليبار ورعاياهم من هذه التجارة العربية فإنهم كانوا يرحبون بالوافدين من التجار العرب ويكرمونهم ولذلك سرعان ما قامت جاليات عربية في هذه المدن تحظى برعاية الحكام المحليين، وبعد ظهور الإسلام أخذت هذه الجاليات تقيم المساجد وتؤدي الفرائض دون أن تلقى تعصباً أو اضطهاداً من جانب الحكام الهندوس، وكان انتشار الإسلام تدريجياً عن طريق الاحتكاك والقدوة الحسنة..

إن التجار المسلمين الذين كانوا يزاولون التجارة في منطقة المحيط الهندي لم يكونوا يصطحبون عائلاتهم معهم في رحلاتهم الطويلة، وكانوا يتزوجون من نساء البلاد التي يرتادونها، فينشأ أبناؤهم مسلمين ويقومون بدورهم في نشر الإسلام ويستدعون الفقهاء ليقودوا الدعوة إلى الإسلام، وبهذا الأسلوب السلمي انتشر الإسلام في سواحل الهند وجزر الهند الشرقية دون الوصول إلى وسائل العنف والقوة[1].

ولقد كان للتجار المسلمين الذين هاجروا إلى إفريقيا من الهند والجزيرة العربية أثر واضح في انطلاق الإسلام إلى مختلف جهات هذه القارة، وقد كان هؤلاء التجار قدوة طيبة تتمثل فيهم أخلاقيات الإسلام من الحب والتسامح والعدل والإيثار والوفاء فضلاً عن بساطة الدين ويسره وسماحته، الأمر الذي جعل الإفريقيين يسارعون إلى اعتناقه عن رضا وطواعية وقد وجدوا فيه فضيلة حبيبة إلى نفوسهم وهي المساواة بين كل أتباعه بصرف النظر عن نسبهم وجنسهم ولونهم ولا يفضل الواحد صاحبه إلا بقربه من الله[2].

وقد اعترف هو برديشان مؤلف كتاب الديانات في إفريقيا وكان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بأن انتشار الدعوة الإسلامية لم يقم على القهر والتسلط بل قام على الإقناع، لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين لا تحوطهم قوة ولا

---

(١) من موضوع: وصول الإسلام إلى ساحل مليبار، أمين الطيبي، مجلة كلية الدعوة العدد الثالث ١٩٨٦، ص ٢٥٢.

(٢) الإسلام في الصومال، الشيخ عبد الرحمن النجار ص ١٨، مطابع الأهرام، القاهرة، ١٩٧٣ م.

تحميهم دولة، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى نشر الإسلام وقد يسّر انتشار الإسلام أنه دين فطرة سهل التناول خال من التعقيد، وأنه لا يفرض على أتباعه طقوساً مبهمة لذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة في هدوء ويسر كما كان لشعور المسلمين العام بأن التبليغ واجب على كل مسلم سواء كان فقيهاً في الدين أو طالباً للرزق قوة مؤثرة في إفساح المجال أمام نور الإسلام لكي يدخل إلى القلوب، فلا يعتقد أولئك التجار بأنهم ليسوا مكلفين بحمل البلاغ إلى الناس بدعوة الإسلام كما يعتقد تجار المسلمين اليوم الذين يقدمون الكسب المادي على واجب الدعوة إلى الله بل إن كثيراً من دعاة الإسلام في عصرنا صاروا تجاراً غايتهم الأولى الاستحواذ على أكبر قدر من الرزق، وينظرون إلى واجب الدعوة نظرة ثانوية مع أن العقل الإنساني اليوم أكثر تفتحاً لأنوار الإسلام منه بالأمس، حتى أن التاريخ يسجل دخول كثير من الناس في الإسلام بأنفسهم دون إرشاد من أحد ولا توجيه من مرشد إلا القراءة في صحائف القرآن المجيد وتاريخ الدعوة الإسلامية الرشيدة.

* * *

الفصـــل الـرابع

الطـــرق الصوفيـــة

إن التصوف الحقيقي في الإسلام يقوم على مبدأ الزهد في الدنيا بإفراغ القلب منها وليس بالإعراض عنها وهجرها وعدم الانتفاع بها، بل يقاوم الزاهد نفسه كي لا يستولي عليه حب الدنيا ونلمح هذا الاتجاه صافياً واضحاً في زهد الحسن البصري ورابعة العدوية ومن سار على هذا المنهج المستضيء بالكتاب والسنة المعرض عن شطحات الهنود أو شبهات الفرس مما تأثر به بعض المتصوفة من المسلمين، ولأن التصوف الحق عند المسلمين يجمع بين الحقيقة والشريعة بين العبادة والجلادة نهض المتصوفة المخلصون ـ لا الأدعياء ـ بأعباء الدعوة وجاهدوا من أجل نشرها.

فلقد أدت الطرق الصوفية دوراً متميزاً في نشر الإسلام وفي الحفاظ على قيمه ومبادئه وفي التصدي لحملات التبشير والاستعمار، إنهم رهبان الليل وفرسان النهار يتجمعون في حلقات الذكر يرفعون به أصواتهم ويجأرون إلى الله بالدعاء وينشدون القصائد في مدح رسول الله، ومع ذلك فهم إذا نادى منادي الجهاد سارعوا بدافع من عقيدتهم إلى حمل أسلحتهم وتقدموا صفوف المقاتلين جهاداً في سبيل الله ولقد تيقظت الطرق الصوفية لخطر المبشرين وقام شيوخها يناهضون حركة التبشير المسيحية ويحذرون الناس من خطرها ويدعون إلى الجهاد المقدس باسم الإسلام وينشرون تعاليم هذا الدين الحنيف، ولأجل تحقيق أهدافهم النبيلة هذه أقاموا المدارس والكتاتيب وأنشؤوا المساجد لتحفيظ القرآن وتفسير آياته

وحببوا إلى مريديهم التعاون والتمسك بمكارم الأخلاق، كما حببوا إليهم البذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل الدعوة.

ولقد كانت الدعوة إلى الإسلام عند الصوفية تقوم على أمرين: أحدهما القدوة والاختلاط والأخلاق السامية والتسامح والرفق في المعاملة وتمثل ذلك في صفوة من أعلام الصوفية أمثال عبد القادر الجيلاني(*) وأبي الحسن الشاذلي، والمرسي أبي العباس وأبي عطاء الله الإسكندري، فقد كانوا على أخلاق إسلامية سامية وكانوا على سماحة تدني البعيد وتثبت القريب، وبهذه الأخلاق التي سرت إلى مريديهم كانوا يجلبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين كانوا يختلطون بهم، وقد كان هؤلاء يختلطون بأهل إفريقيا الوثنيين وبالمجوس في آسيا فيؤثرون فيهم بمعاملتهم وسعة صدورهم وصحة عقيدتهم.

أما الأمر الثاني فهي مجالس الوعظ التي كان يعقدها الأئمة من المتصوفة يحضرها المسلمون وغير المسلمين، ومن أمثلة ذلك عبد القادر الجيلاني الذي كان عالماً بالأصول والفروع والحديث رواية ودراية فكان الجيلاني مربياً لنفوس مريديه داعياً إلى الحق، وقد دخل الإسلام على يديه الكثيرون من المجوس والمسيحيين(١).

وكان السيد أحمد التيجاني «١١٥٠ ـ ١٢٣٠ هـ» ومن جاء بعده قد اتجهوا إلى إفريقيا يبثون فيها الإسلام حيث كانوا يعلمون الزنوج تعاليم الدين الإسلامي وينشئون لهم معاهد تدرس الإسلام واللغة العربية وكانوا يأخذون بعضاً من الأفارقة إلى المغرب الأقصى يعلمونهم مبادىء الإسلام ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاة ومدرسين في المدارس التي أنشؤوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام في غرب إفريقيا ووسطها.

ولما استعمرت أوروبا إفريقيا أرسلت إليها المبشرين فرادى وجماعات ولكنهم

(*) هو عبد القادر بن موسى الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية من كبار المتصوفين عاش في بغداد وتوفي سنة ٥٦١ هـ.

بهجة الأسرار ومعرف الأنوار ـ علي بن يوسف الشطنوفي ص ٨٨.

(١) الدعوة إلى الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ١١٨.

عجزوا عن تنصير المسلمين وما زالت حملاتهم التبشيرية بالمسيحية حتى يومنا الحاضر.

وإن خفت ضياء الصوفية اليوم أو تحول إلى ظلام لسوء مسلك من يدعون الانتماء إلى الطرق الصوفية وهم لا يحملون من أخلاق المتصوفة إلّا شاراتهم ورواياتهم، فإن أبناء الإسلام في عصرنا يستطيعون أن يقتدوا بسلامة طوية الصفوة من المتصوفة وحسن سلوكهم لمقاومة تيار المادية الغربية الجارف الذي اجتاح المسلمين وغير المسلمين في استواء على الصراط دون إفراط ومن غير تفريط وفي توازن لا يخل بقواعد الإسلام، ولا يدفع النفوس إلى السآمة من أحكام هذا الدين الذي يسره الله لإصلاح شؤون العباد في الدنيا والآخرة، فإذا شاهد الناس المسلمين متعلقين بمبادىء دينهم تجول الدنيا في أيديهم ولا تستولي على قلوبهم بادروا إليهم واستعانوا بهم في استكشاف ضياء الإيمان واستبصروا بهم في الاهتداء إلى طريق الإسلام.

* * *

الفصـــل الخامـس

الإعـلام الإسلامـي

إننا ننظر إلى مفهـوم الإعلام الإسـلامي نظرة واسعـة تجاوز الإذاعـة والصحف، إننا نريد بمفهوم الإعلام الإسلامي كل ما يقنع ويمتع بجمع هذين العنصرين بحيث يؤثر في الوجدان وينير الأذهان فيشمل الأدب بأنواعه إذا ما وظف لخدمة الدعوة الإسلامية سواء طبع هذا الأدب في كتاب أو أذيع في إذاعة أو نشر في إذاعة أو نشر في صحيفة، غير أنه لأهمية الإذاعة والصحافة والخيالة فإننا نشدد على ضرورة استغلالها في خدمة الدعوة لأنها أكثر انتشاراً فهي تخاطب الناس جميعاً على تفاوت مستوياتهم العقلية والاجتماعية، ويجب إحكام استخدام وسائل الإعلام كثيرة الانتشار في غير لجوء إلى التوجه المباشر الذي يكشف عن القصد من أول الأمر لأنه خطاب للعقل وحده، فنحن نريد خطاب العقل والعاطفة بلسان الصدق وحسن التأثير فنعرض حقائق الإسلام دون تحريف ومن غير تزوير في قصة تثير عاطفة المستمع والمشاهد بلا جناية على الوقائع التاريخية ومن غير امتهان للشخصيات الإسلامية.

وقبل ذلك علينا أن نخلص الإعلام الإسلامي من مساوئه التي على رأسها محاكاة الإعلام الغربي في عرض وإذاعة ونشر مـا يتصادم وحقـائق الإسلام وأحكامه، ويجب أن نخرج إعلامنا من تلك السفاسف التي اقتحمت علينا بيوتنا ودورنا وشوارعنا ثم نزود أجهزتنا الإعلامية بما يخدم دعوتنا الإسلامية فإعلامنـا في حاجة إلى تخلية ثم إلى تحلية كحاجة الإنسان المسلم منا في هذا العصر.

وما الإعلام إلا مرآة لحياة الناس فإن صلح الفرد المسلم صلحت وسيلة تعبيره وإن بقي على حاله من الجهل واتباع النزوات وتقليد الأفكار الغربية بقي الإعلام مشوهاً غير مفيد.

فبعودة إلى منهج الإسلام من الفرد المسلم ثم من المجتمع بأسره يتوجه الرأي العام الإسلامي إلى قنوات الإسلام الصالحة «إذا أريد للإعلام الإسلامي وأريد للدعوة إلى الإسلام أن تحدث تغييراً في الواقع لا بد أن تستند إلى منهجية، وهذه المنهجية لا تقوم على الوصفية البحتة بل تتجاوزها إلى العمق في التحليل وإيجاد الحلول وحل المشكلات التي تواجه الإنسان المسلم المكلف بالدعوة والإنسان غير المسلم المخاطب بالدعوة، فعلى سبيل المثال نرى الناس اليوم في لهف إلى الاستقرار وفي هلع من القلق الذي صار يجتاح القلوب، فلا يكفي الإعلام الإسلامي أن يعرض مظاهر وصفية لما يعانيه الناس من القلق بل بعد الوصف يقدم لهم الحل الإسلامي لهذه المشكلة التي شغلت الناس يدلهم على منابع السكينة والطمأنينة التي اشتملت عليها أحكام الإسلام ونطقت بها آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. وعلى الإعلام الإسلامي أن يتوخى الواقعية ما أمكن وأن يلائم بين ما يعيشه الإنسان وبين ما ينشده، لأنه إذا بدأ الفكر ولا صلة له بالواقع سيكون مصطدماً به ولا يؤدي إلى عمل»[1].

وزيادة على ذلك يجب أن نتوخى الموضوعية فيما نذيع أو نعرض أو نصور أو ننشر فالحق هو الهدف وعليه قامت دعوة القرآن وبه بين الرسول ﷺ معانيه فالوسيلة ملتزمة بالصدق والغاية مقيدة بالحق.

«فالإعلام الإسلامي يجب أن يرسم صورة صادقة لرسالة محمد ﷺ لا يزيد فيها ولا ينقص، وليس لديه ما يخفيه أو يسخر منه أملاً في أن الفطرة الإنسانية أصبحت تعرف الحق وتبادر إلى قبوله»[2].

---

(١) من محاضرة بعنوان «الإعلام ودوره في الدعوة» إبراهيم الغويل، أعمال الملتقى الثاني لخريجي كلية الدعوة الإسلامية ١٩٨٨ طرابلس، ليبيا ص ٨٢.

(٢) الدعوة الإسلامية، محمد الغزالي ص ١٦١، ط ٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥.

وكما أنه يجب أن نتصور أن الدعوة الإسلامية في استخدامها للوسائل الإعلامية تثير الوجدان بالإمتاع الروحي، يجب أن نتصور كذلك أنها بذلك الإمتاع لا تجافي الحق ولا تنحاز إلى الباطل فلا إثارة للنزوات المنحرفة في الإعلام الإسلامي مثلما يمتنع ذلك في واقع حياة المسلم، فإذا كان الإعلام صورة من الحياة فإن إعلامنا الإسلامي مطلوب منه أن يكون صورة طاهرة صادقة من حياة المسلم الملتزم، وبذلك يتعانق السلوك السوي المستقيم مع الكلمة الصادقة والمشهد المؤثر المقنع في تجانس مع مقاصد الدعوة الإسلامية الراشدة فالجمع بين عناصر ثلاثة في العملية الإعلامية يحقق النجاح للدعوة الإسلامية عنصر النموذج القويم للإنسان المسلم الذي مطلوب منه أن يكون داعية، وعنصر العرض الصحيح لمبادىء الدعوة، ثم عنصر التأثير النافع بالوسيلة الإعلامية مقروءة أو مسموعة، أو مشاهدة تمتزج هذه العناصر الثلاثة حيث تقدم للمسلمين وغيرهم من المخاطبين بالدعوة هدى على الطريق ونوراً على الصراط.

وعلى الإعلام الإسلامي أن ينشر أعمال الدعاة المخلصين على الناس حتى تخرج من ضيق المكان ومحدودية الزمان فنذيع الندوات والمحاضرات والمحاورات التي يساهم بها الدعاة المخلصون سواء كانت موجهة إلى المسلمين أو مخاطباً بها غير المسلمين، فنباركها وننشرها ما دامت قائمة على منهج الدعوة السوي ونتسامح عن بعض الهنات التي لن يخلو منها مصلح ولا يبرأ منها داعية غير معصوم.

* * *

خاتمة

وبعد،،،، فقد تتبعت موضوعات هذا البحث خطوة بخطوة مسألة بمسألة، وأبصرت حقيقة أن يكون لهذه الدعوة الحنيفية السمحة دعاة تربوا على منهجها وأشربوا حبها وسرت في عروقهم أنوارها، واعتقدت بأن العالم لن يلتفت إلى دعوة أعرض أتباعها عن إبلاغها أو قصروا في القيام بواجب نشرها، وأفدت من هذا البحث نتائج أسجلها في النقاط التالية:

١ ـ الاستدلال من نصوص الكتاب وإرشادات النبي ﷺ وسيرة السلف الصالح على إثبات عالمية الدعوة الإسلامية بما لا يترك مجالاً لشبهة مهاجم أو فرية حقود مكابر.

٢ ـ كما أن النبي ﷺ قدوة للمؤمنين في مسلكهم العقدي والعملي، فهو قدوتهم كذلك في الدعوة إلى الله التي هي جزء من المنهج العملي للمسلم.

٣ ـ المتبصر لتعاليم القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ يرى صورة الداعية الأمثل ويتعرف على الشروط الأساسية لتكوينه، ولقد فصلناها في الباب الثاني.

٤ ـ إبلاغ الدعوة شعيرة كشعيرة الجهاد يلتزم بها المسلم القادر على النهوض بها التزامه بواجب الجهاد فما فرض الجهاد إلا من أجلها.

٥ ـ لن يكون الداعية بالغاً مقصده في دعوته إلى الله إلا إذا وفق بين دعوته وأحوال المخاطبين الشعورية والعقلية والاجتماعية وتدرج معهم في الدعوة تدرجاً،

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ناطقان بهذه الحقيقة.

٦ ـ إن خصائص الإسلام ونبل مقاصده الإنسانية هي التي فتحت قلوب الناس له، وليس القوة التي لجأ إليها المسلمون لإزالة الموانع التي تقف دون وصولهم إلى المدعوين.

٧ ـ لا تقتصر وسائل انتشار الدعوة الإسلامية على الكتابة أو مخاطبة المدعوين وجهاً لوجه، وإنما تتسع لتشمل وسائل انتشار الكلمة بأنواعها المختلفة، كما أنني أرى ضرورة تحديث تلك الوسائل بما يتلاءم وطبيعة العصر مع عدم التقصير في الوسائل المعتادة، والاستفادة من الأجهزة السمعية والبصرية الحديثة كالأقمار الصناعية العربية والإسلامية.

ذلك ما اهتديت إليه فإن كان صواباً
فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي
«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وسلم...

المصادر والمراجع

١ ـ القـرآن الكريـم

١ ـ ابن الأثير :عز الدين أبو الحسن بن محمد ت (٦٣٠ هـ).
الكامل ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٨٠ م.

٢ ـ ابن تيمية :أحمد عبد الحليم ت (٧٢٨ هـ).
الفتاوى الكبرى ـ مطابع الرياض ـ ط/ ١٣٨٢ هـ.

٣ ـ ابن الجوزي :جمال الدين أبو الفرج ت (٥٩٧ هـ).
تلبيس إبليس ـ دار الفكر ـ الأردن.

٤ ـ ابن حنبل :أحمد بن محمد الشيباني ت (٢٤١ هـ).
مسند الإمام أحمد ـ ط/ الثانية ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨ م.

٥ ـ ابن سعد :محمد ت (٢٣٠ هـ).
الطبقات الكبرى ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٨٥ م.
غزوات الرسول وسراياه ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٨١ م.

٦ ـ ابن سلام :أبي عبيد القاسم ت (٢٢٤ هـ).
كتاب الأموال ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ دار الفكر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٥، ١٩٧٦ م ـ تحقيق محمد خليل هراس.

٧ ـ ابن عاشور :محمد الطاهر ت (١٣٩٣ ـ ١٩٧٣ م).

أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس.
تفسير التحرير والتنوير ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس ـ ١٩٨٤ م.

٨ ـ ابن القيم :شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سعد ت (٧٥١ هـ).
زاد المعاد ـ المطبعة المصرية ـ ط/ الأولى ـ ١٩٢٨ م.

٩ ـ ابن كثير :عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو ت (٧٧٤ هـ).
البداية والنهاية ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
تفسير القرآن العظيم ـ دار الأندلس ـ بيروت ـ ط/ الخامسة ـ ١٩٨٤ م.

١٠ ـ ابن ماجة :أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت (٢٧٣ هـ).
سنن ابن ماجة ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

١١ ـ ابن منظور :محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي ت (٧١١ هـ).
لسان العرب ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٥٦ م.

١٢ ـ ابن هشام :أبو محمد بن عبد الملك ت (٢١٨ هـ).
السيرة النبوية ـ تحقيق مصطفى السقا ـ دار الكنوز الأدبية.

١٣ ـ أبو السعود :محمد محمد مصطفى العمادي ت (٩٨٢ هـ).
تفسير أبو السعود ـ دار المصحف ـ القاهرة.

١٤ ـ أبو خليل :شوقي أبو خليل.
الإسلام في قفص الاتهام ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٧٧ م.

١٥ ـ أبو زهرة :محمد أحمد ت (١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م).
خاتم النبيين ـ المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت ـ ١٩٧٢ م.
الدعوة إلى الإسلام ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.
المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ـ دار مكتبة الفكر ـ طرابلس ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٠ م.

١٦ ـ أرنولد :توماس ووكر ت (١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م).
الدعوة إلى الإسلام ـ ترجمة حسن إبراهيم ـ ط/ الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة.

١٧ ـ الأصبحي :الإمام مالك بن أنس ت (١٧٩ هـ).
الموطأ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨٤ م.

١٨ ـ الألوسي :محمود شكري عبد الله شهاب الدين ت (١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م).
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ نشر محمد الأثري ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ـ ١٩٢٤ م.

١٩ ـ الألوسي :محمود عبد الله الحسيني ت (١٢٧٠ هـ ـ ١٨٥٤ م).
تفسير روح المعاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ طبعة جديدة ـ ١٩٧٨ م.

٢٠ ـ البخاري :محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت (٢٥٦ هـ).
صحيح البخاري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢١ ـ بروكلمان :كارل ت (١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م).
تاريخ الشعوب الإسلامية ـ ترجمة نبيه فارس ـ دار العلم ـ بيروت ـ ط/ التاسعة ـ ١٩٨١ م.
تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٧ م.

٢٢ ـ البنا :أحمد عبد الرحمن.
الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد الشيباني ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة.

٢٣ ـ بوازار :مارسيل.
إنسانية الإسلام ـ ترجمة عفيف دمشقية ـ دار الآداب ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٨٣ م.

٢٤ ـ الترمذي :الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى ت (٢٧٩ هـ).
سنن الترمذي ـ مكتبة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٥ م.

٢٥ ـ جاويش :عبد العزيز بن خليل ت (١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٩ م).
الإسلام دين الفطرة والحرية ـ دار الهلال ـ القاهرة.

٢٦ ـ جمال :أحمد محمد.
مفتريات على الإسلام ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٧٢ م.

٢٧ ـ الجندي :أنور الجندي.
الإسلام والثقافة العربية ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة.
الإسلام وحركة التاريخ ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

٢٨ ـ حسن :حسن إبراهيم.
تاريخ الإسلام ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٦٣ م.

٢٩ ـ حسن :محمد أمين.
خصائص الدعوة الإسلامية ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨٣ م.

٣٠ ـ حسين :محمد كمال.
انتشار الإسلام ـ دار الفكر العربي ـ ط/ الأولى ـ ١٩٧٦ م.

٣١ ـ الحلبي :علي برهان.
السيرة الحلبية ـ مكتبة مصطفى البابي وأولاده ـ مصر ـ ط/ الأولى ـ ١٩٦٤ م.

٣٢ ـ خالد :حسن خالد.
موقف الإسلام من الوثنية والنصرانية واليهودية ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨٦ م.

٣٣ ـ خان :محمد صديق.
نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.

٣٤ ـ الخضر :محمد حسين ت (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م).

الدعوة إلى الإصلاح ـ نشر على الرضا التونسي ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٣ م.

٣٥ ـ الداودي :شمس الدين محمد بن علي ت (٩٤٥ هـ).
طبقات المفسرين ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨٣ م.

٣٦ ـ دراز :محمد بن عبد الله ت (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م).
الدين ـ دار القلم ـ الكويت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٠ م.

٣٧ ـ دروزة :محمد عزت.
تاريخ العرب في الإسلام ـ المكتبة العصرية ـ بيروت.

٣٨ ـ الرازي :فخر الدين محمد بن عمر بن حسين ت (٦٠٦ هـ ـ ١٢١٠ م).
تفسير الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨١ م.

٣٩ ـ رضا :محمد رشيد ت (١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م).
تفسير المنار ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٤٠ ـ الزاوي :الطاهر أحمد.
ترتيب القاموس المحيط ـ الدار العربية للكتاب ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٨٠ م.

٤١ ـ الزحيلي :وهبة الزحيلي.
آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٨١ م.

نظام الإسلام ـ منشورات جامعة قاريونس ـ بنغازي ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٨ م.

٤٢ ـ الزركلي :خير الدين.
الأعلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط/ الخامسة ـ ١٩٨٠ م.

٤٣ ـ الزمخشري :أبو القاسم محمود بن عمر ت (٥٣٨ هـ).
تفسير الكشاف ـ مكتبة مصطفى البابي ـ مصر ـ الطبعة الأخيرة ـ ١٩٧٢ م.

٤٤ ـ الزوزني :أبو عبد الله الحسين بن أحمد ت (٤٦٨ هـ).
شرح المعلقات السبع ـ دار الاتحاد العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م.
٤٥ ـ سراج الدين :عبد الله سراج الدين.
سيدنا محمد رسول الله ـ جمعية التعليم الشرعي ـ حلب ـ سوريا ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٨ م.
٤٦ ـ السرخسي :أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهيل ت (٤٩٠ هـ).
شرح السير الكبير ـ طبعة جامعة القاهرة.
٤٧ ـ الشافعي :محمد بن إدريس ت (٢٠٤ هـ).
الأم ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٨٣ م.
٤٨ ـ شامة :محمد شامة.
الإسلام كما ينبغي أن نعرفه ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط/ الأولى ـ ١٩٨٣ م.
٤٩ ـ شرف الدين :عبد العظيم شرف الدين.
تاريخ التشريع الإسلامي ـ منشورات جامعة قاريونس ـ بنغازي ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٨٩ م.
٥٠ ـ الشطنوفي :علي بن يوسف.
بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ـ ط/ مصر ـ ١٣٠٤ هـ.
٥١ ـ شلبي :أحمد.
مقارنة الأديان ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ط/ الثامنة ـ ١٩٨٥ م.
٥٢ ـ الصالح :الدكتور صبحي.
علوم الحديث ومصطلحه ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة عشرة ـ ١٩٨٤ م.
٥٣ ـ الصابوني :محمد علي.
تفسير آيات الأحكام ـ دار عالم الكتب ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٤٠٥ هـ.
٥٤ ـ الصنعاني :محمد إسماعيل ت (١١٨٢ هـ ـ ١٧٦٨ م).
سبل السلام ـ دار الجيل ـ بيروت ١٩٨٠ م.

٥٥ ـ الطبري محمد بن جرير ت (٣١٠ هـ).
تاريخ الرسل والملوك ـ المطبعة الحسينية ـ القاهرة.
تفسير جامع البيان ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧٢ م.

٥٦ ـ الطهطاوي :محمد عزت.
التبشير والاستشراق ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

٥٧ ـ عبد الباقي :محمد فؤاد ت (١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م).
المعجم الفهرسي لألفاظ القرآن الكريم ـ دار الفكر ـ بيروت.

٥٨ ـ عبد القادر :حامد عبد القادر.
الإسلام ظهوره وانتشاره في العالم ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ط/ الثانية ـ ١٩٦٤ م.

٥٩ ـ عبد الوهاب :محمد فهمي.
محمد رسول الإسلام ـ دار أبو سلامة تونس ـ ط/ الثانية ـ ١٩٨٥ م.

٦٠ ـ عبده :الشيخ محمد بن حسن ت (١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م).
الإسلام والنصرانية ـ الناشر محمد رشيد رضا ـ مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤ م.
رسالة التوحيد ـ محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م.

٦١ ـ عريبي :محمد يس.
تأملات في بناء المجتمع الإسلامي ـ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ـ طرابلس ليبيا ـ ط/ الثانية ـ ١٩٩٠ م.

٦٢ ـ عساف :أحمد محمد.
خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٨٣ م.

٦٣ ـ العسقلاني :شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت (٨٥٢ هـ).
الإصابة في تمييز الصحابة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٢٨ هـ.

٦٤ ـ العقاد :عباس محمود ت (١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م).

الإسلام دعوة عالمية ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٧٤ م.

الإسلام في القرن العشرين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٦٩ م.

لا شيوعية ولا استعمار ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٧١ م.

مطلع النور ـ طوالع البعثة المحمدية ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط/ الأولى ـ ١٩٦٩ م.

٦٥ ـ علي :مولاي محمد.

حياة محمد ورسالته ـ ترجمة منير البعلبكي ـ دار القلم ـ بيروت ـ ط/ السابعة ـ ١٩٨٤ م.

محمد رسول الله ـ مكتبة مصر ـ القاهرة.

٦٦ ـ العيني :بدر الدين محمد بن أحمد ت (٨٥٥ هـ).

عمدة القارىء شرح صحيح البخاري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٦٧ ـ غارودي :روجيه.

ما يعد به الإسلام ـ ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم ـ دار الوثبة ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٣ م.

٦٨ ـ الغزالي :الإمام أبو حامد محمد بن محمد ت (٥٠٥ هـ).

إحياء علوم الدين ـ مكتبة صبيح وأولاده ـ القاهرة ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

٦٩ ـ الغزالي :محمد الغزالي.

الدعوة الإسلامية ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ـ ط/ الثانية ـ ١٩٨٥ م.

فقه السيرة ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ ط/ السادسة ـ ١٩٦٥ م.

٧٠ ـ غلوشي :أحمد أحمد.
الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ـ دار الكتاب المصري ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.

٧١ ـ الفراء :محمد بن حسين.
الأحكام السلطانية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.

٧٢ ـ فروخ :د. عمر.
تاريخ الأدب العربي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط /الرابعة ـ ١٩٨١ م.

٧٣ ـ فنسنك :ارند جان ت (١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م).
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف.

٧٤ ـ القرضاوي :يوسف.
ثقافة الداعية ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط/ الحادية عشرة ـ ١٩٨٧ م.

٧٥ ـ القرطبي :محمد بن أحمد الأنصاري ت (٦٧١ هـ).
الجامع لأحكام القرآن ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط/ الثانية ـ ١٩٥٢ م.

٧٦ ـ القطان :مناع القطان.
مباحث في علوم القرآن ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط/ التاسعة عشرة ـ ١٩٨٣ م.

٧٧ ـ الكاتب :سيف الدين.
أعلام الصحابة ـ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.

٧٨ ـ الكاندهلوى :محمد يوسف.
حياة الصحابة ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط/ الخامسة ـ ١٩٨٧ م.

٧٩ ـ كرو :الهادي كرو.
أصول التشريع الإسلامي ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا وتونس ـ ١٩٧٦ م.

٨٠ ـ كلاوي :رامي.
روجيه غفارودي من الإلحاد إلى الإيمان ـ دار قتيبة ـ دمشق ـ ط/ الأولى ـ ١٩٩٠ م.

٨١ ـ لاشين :موسى شاهين.
فتح المنعم شرح صحيح مسلم ـ دار التأليف ـ ط/ الأولى ـ ١٩٦٩ م.
اللآلىء الحسان في علوم القرآن ـ دار التأليف ـ مصر ـ ١٩٦٨ م.

٨٢ ـ المباركفوري: صفي الرحمن.
الرحيق المختوم ـ دار إحياء التراث ـ ١٩٧٦ م.

٨٣ ـ محمود :عبد الحليم محمود.
أوروبا والإسلام ـ مطابع الأهرام القاهرة.

٨٤ ـ محمود :مصطفى محمود.
محمد صلى الله عليه وسلم ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ م.

٨٥ ـ مسعود :جبران مسعود.
معجم الرائد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ط/ الرابعة ـ ١٩٨١ م.

٨٦ ـ مسلم :أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري ت (٢٦١ هـ).
صحيح مسلم ـ المطبعة المصرية ـ سوق الأوقاف ـ القاهرة ـ ١٣٤٩ هـ.

٨٧ ـ المنذري :أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى ت (٦٥٦ هـ).
مختصر سنن أبي داود ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقيه ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.

٨٨ ـ النجار :عبد الرحمن النجار.
الإسلام في الصومال ـ مطابع الأهرام ـ القاهرة ـ ١٩٧٣ م.

٨٩ ـ النجار :عبد الوهاب النجار.

قصص الأنبياء ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط/ الثالثة.

٩٠ ـ النجار :محمد مصطفى وأحمد مجاهد مصباح.
العرب وظهور الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط/ الأولى ـ ١٩٦٩ م.
فتوحات الإسلام في إفريقيا ـ مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط/ الأولى ـ ١٩٦٧ م.

٩١ ـ نجيب :مصطفى نجيب.
حماة الإسلام ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٩٢ ـ الندوى :أبو الحسن علي بن عبد الحي.
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ـ دار القلم ـ الكويت ـ ١٩٦٩ م.

٩٣ ـ الندوى :سليمان الندوى.
الرسالة المحمدية ـ مكتبة دار الفتح ـ دمشق ـ ط/ الثالثة ـ ١٩٧٣ م.

٩٤ ـ النسفي :عبد الله أحمد بن محمود ت(٧١٠ هـ).
تفسير النسفي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٩٥ ـ نوفل :عبد الرزاق نوفل.
محمد رسولاً نبياً ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة ـ ١٩٦١ م.

٩٦ ـ النووي :محيي الدين يحيى بن شرف ت (٦٧٧ هـ).
رياض الصالحين ـ مكتبة الغزالي ـ دمشق ـ بيروت ـ ١٩٥٥ م.

٩٧ ـ هارون :عبد السلام هارون.
تهذيب سيرة ابن هشام ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٩٨ ـ هيكل :محمد حسنين.
حياة محمد ـ مكتبة النهضة ـ القاهرة ـ ط/ الخامسة ـ ١٩٦٨ م.

٩٩ ـ الواحدي :علي أحمد محمد النيسبوري ت (٤٦٨ هـ).
أسباب النزول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٠٠ ـ الوكيل :محمد السيد.
أسس الدعوة ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ دار المجتمع ـ ط/ الثانية ـ ١٩٨٦ م.
الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. من غير بيانات.

١٠١ ـ الصالح :صبحي.
مباحث في علوم القرآن ـ دار العلم للملايين ـ ط/ الخامسة عشرة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م.

الدوريات

١ ـ **أعمال الملتقى الثاني** لخريجي كلية الدعوة ـ طرابلس ـ ليبيا ـ ١٩٨٨.
٢ ـ **مجلة كلية الدعوة** ـ العدد الثالث ـ طرابلس ـ ليبيا ـ ١٩٨٦.
٣ ـ **مجلة كلية الدعوة** ـ العدد السادس ـ طرابلس ـ ليبيا ـ ١٩٨٩.

الفهـــرس

المقدمة ٧
التمهيد ١١

الباب الأول
عالمية دعوة الإسلام

الفصل الأول: عرض شبهات المستشرفين في خصوصية الإسلام بالعرب ١٥
الفصل الثاني: عالمية الإسلام في القرآن ٢٧
الفصل الثالث: إبطال دعوى اختصاص الإسلام بالعرب ٣١
الفصل الرابع: عالمية الإسلام في السنة ٣٧
الفصل الخامس: الديانتين اليهودية والنصرانية ٤١
الفصل السادس: الخصائص الإنسانية للدعوة الإسلامية ٤٧

الباب الثاني
الدعوة والدعاة

الفصل الأول: تعريف الدعوة ٥٧
الفصل الثاني: الفرق بين الداعية والواعظ ٦١
الفصل الثالث: الداعية الأول/ محمد (صلى الله عليه وسلم) ٦٣

الفصل الرابع: إعداد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للدعاة ٧٩
الفصل الخامس: صفات الداعية كما يصورها الكتاب والسنة ٧٨
الفصل السادس: مقاصد الدعوة إلى الله تعالى ١٠٣
الفصل الرابع: واجب إبلاغ الدعوة ١١٣

الباب الثالث
مراعاة حال المخاطبين بالدعوة

الفصل الأول: مراعاة الحالة الشعورية ١٢٣
الفصل الثانية: الحالة العقلية ١٣٣
الفصل الثالث: مراعة الحالة الاجتماعية للمدعوين ١٤٣
الفصل الرابع: التدرج في الدعوة ١٤٧

الباب الرابع
وسائل إنتشار الدعوة

الفصل الأول: المكاتبات ١٥٩
الفصل الثاني: الفتوحات ١٦٩
الفصل الثالث: التجارة ١٨١
الفصل الرابع: الطرق الصوفية ١٨٣
الفصل الخامس: الإعلام الإسلامي ١٨٩
خاتمة ١٩٣
المصادر والمراجع ١٩٥
الفهرس ٢٠٧